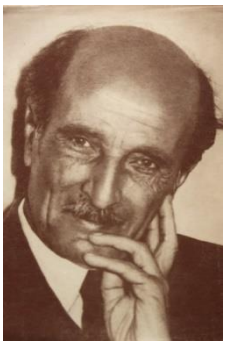

سيرة ميخائيل نْعَيمِه وأبرز منجزاته[1]
(١٨٩٩– ١٩٨٨)

عائلته وولادته ونشأته الباكرة

ينتمي ميخائيل نعَيمه إلى عائلة تتألّف من ستّة أولاد: خمسة إخوة، وأخت واحدة. الإخوة هم: ديب أو أديب البكر، وهيكل المولود عام ١٨٨٨[2]، ونجيب المولود عام ١٩٠٠، ونسيب الأصغر المولود عام ١٩٠٤. أمّا الأخت فهي غالية. وهو ثالث إخوته بعد أديب وهيكل. أمّا ولادته فكانت في السابع عشر من تشرين الأوّل سنة ١٨٨٩[3]. وقد أُسمي بهذا الاسم– مْخايل كما يُلفَظ في العاميّة– على اسم جدّه لأبيه، جريًا على العادة المألوفة "في حِفْظ أسماء السلَف بين الخَلَف". أمّا مكان ولادته ففي بلدة بَسْكِنْتا[4] الواقعة في أعالي قضاء المتن الشماليّ، ومعدّل ارتفاعها عن سطح البحر حوالي ألف وأربعمئة متر، في حضن جبل صنّين. ويُشار إلى أنّه نشأ في كَنَف عائلة أرثوذكسيّة محافِظة، متديّنة، رقيقة الحال.

في العام ١٨٩٠، أي بعد سنة من مولد ميخائيل، سافر أبوه يوسف، الصبور القَنوع المسالِم، إلى ولاية كاليفورنيا في الولايات المتّحدة الأميركيّة، باحثًا له ولعائلته عن ظروف حياتيّة أفضل؛ تاركًا على كاهل "لطيفة"، ألأمّ الحادّة الطبع والتي "تميل إلى الإرشاد والجَدل"، مهمّة تنشئته وأَخوَيه[5]: أديب البكر، وهيكل الذي يكبره بسنة واحدة. لكنّه عاد إلى بَسْكِنْتا عام ١٨٩٦، بعد سنوات ستّ وميخائيل

---

[1] اعتمدنا في كتابة هذه السيرة لميخائيل نعيمة على كتابه **سبعون** بمراحله الثلاث والذي يمتدّ حتى العام ١٩٥٩. لذا، وتجنّبًا لتكرار ذكر المصدر نفسه في الهوامش، اقتصرنا على ذكر المصادر الأخرى، أمّا سائر المعلومات والتفاصيل الواردة حول سيرة نعيمه، والتي لم نذكر فيها المصدر، فهي تعود إلى كتابه **سبعون**، كمصدر أوّل ورئيس لسيرته، كما وردت في هذه المقالة.

[2] يَورِد نعيمه اسم شقيقه البكر بصورتَين: ديب (**سبعون، المرحلة الأولى**، مرجع سابق، ص ٥٢، ٢٨١، ٢٨٢)، وأديب (المرجع نفسه، ص ٢٨٠). وتتكرّر هاتان الصورتان لاسم شقيقه في مواضع أخرى من **سبعون**. وأديب أصبح اسمه الأميركيّ "دْجو" (Joe)، وهيكل صار اسمه "هنري": نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الثانية، ١٩١١–** ١٩٣٢، الطبعة السادسة، بيروت، مؤسّسة نوفل، ١٩٨٣، ص ١٣.

[3] حول تاريخ ولادة نعيمه، والكيفيّة التي تمّ بموجبها اعتماد هذا التاريخ، يُراجَع: **سبعون، المرحلة الأولى**، الطبعة التاسعة، بيروت، مؤسّسة نوفل، ١٩٩٧، ص ١٠٣– ١٠٧.

[4] يُشدّد نعَيمه على وجوب لفظ أسماء الأعلام والأمكنة بحركاتها الصحيحة. وقد اعتمدنا في اسم عائلته (نْعَيمِه) ومسقط رأسه (بَسْكِنتا) ما ذكره في **سبعون، المرحلة الأولى**، مرجع سابق، ص ٣٢، ٤٢. وفي معنى اسم بَسْكِنتا يعطي تفسيرات عديدة منها: "بيت السكن" أو "بيت القضاء"، أو أنّه مُختزَل من "بيت سنكن يتن" الفيلسوف الفينيقيّ الذي عاش قبل حرب طروادة، وفي سفح جبل صنّين على ما يقول البعض (المرجع نفسه، ص ٤٢).

[5] شيّا، محمّد شفيق، **فلسفة ميخائيل نعيمه، تحليل ونقد**، مرجع سابق، ص ١٧. يُراجَع أيضًا: ملحس، ثريّا، **ميخائيل نعَيمه الأديب الصوفيّ**، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، ودار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٤، ص ١٨٥. ويشير نعيمه في **سبعون، المرحلة الأولى**، مرجع سابق، ص ٦١، أنّ سفر والده كان بإلحاح من والدته. وكان قد ذكر، قبل ذلك، أنّ الوالدة تنتمي إلى عائلة "خَلَف" (المرجع نفسه، ص ٢٨).

"دون السابعة ببضعة شهور"، من غير أن تجديه سفرته شيئًا على صعيد الغاية التي سافر من أجلها. وبعودته هذه عاد "إلى مورد رزقه الأوّل والوحيد وهو صراعه المُضني مع تراب الشُّخْرُوب، البقعة الصخريّة الصغيرة في سفح صنّين التي تملكها العائلة"[١].

سنوات الدراسة الأولى

في الخامسة من عمره بدأ يتعلّم مبادىء القراءة والكتابة العربيّتَين، والحساب، في المدرسة المحليّة البدائيّة[٢]، بعد أن كان أخواه، ديب وهيكل، قد سبقاه إلى دخولها. وبعد سنتَين، وكان قد بلغ نحو السابعة من عمره، أنهى "كرّاس طوبى"، وهو كرّاس مختارات من مزامير النبي داود، "وأوّلها المزمور الذي مطلعه: طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الكَفَرة". وبانهائه لهذا الكرّاس أُجيز في "حفل تخرُّج" باهر، وَفْقًا لتقاليد المدارس في ذلك الزمان، والقاضية بأنْ يُساق الولد "إلى أهله ويداه موثقتان إلى ظهره"، ولا تُفكّان إلّا بعد تقديم الأهل "حِلْوِيْنة" (زبيب وجوز وما شابه) للمعلّم ولجمهور مُرافقِيه.

وفي العاشرة من سِنِيْه، أي سنة ١٨٩٩، دخل أوّل مدرسة نظاميّة في حياته، وهي المدرسة التي أسَّستها، في بسكنتا، الجمعيّة الإمبراطوريّة الروسيّة لفلسطين. ومدرسة بسكنتا هذه هي واحدة من المدارس التي أسَّستها الجمعيّة في لبنان وسوريا "من قَبيل العناية بالأرثوذكس من رعايا السلطان". ولم تكن هذه الجمعيّة "تشترط على الأرثوذكس"، الذين يرغبون في أن تكون لهم مدرسة "مسكوبيّة" في أيّ بلدة، إلّا التبرّع بتقديم البناء اللائق. "أمّا المعلّمون والكتب والدفاتر والحبر والأقلام والأثاث وتكاليف الإدارة فجميعهم وجميعها بالمجّان". ويصف نعَيمه هذه المدرسة بأنّها "يُمكن أن تُدعى مثاليّة"، وكان بناؤها كبيرًا ومسقوفًا بالقرميد، ويتألفَّ من طبقتين: السفلى لصفّ الصغار أو "البستان"، والعلويّة عبارة عن "بهو فسيح تقوم على جانبَيه ستّ غرف واسعة للتدريس، ومُرقَّمة من الواحد حتّى الستّة". وأمام البناء ساحة مخصَّصة لِلَعِب. وكانت تضمّ "خمسة معلّمين وثلاث معلّمات، على رأسهم مدير تخرّج من دار المعلّمين الروسيّة في الناصرة". وللمرّة الأولى في تاريخ بسكنتا "أقبلَ بناتها على الدرس أسوة بأبنائها". وكانت المدرسة "تبذل للغة العربيّة عناية خاصّة"، والكتاب المُعتمَد لتدريس قراءتها هو كتاب **مدارج القراءة** في أربعة أجزاء من تأليف المعلّم الشهير جرجس همّام. "وبرنامج القراءة كان يماشيه برنامج متدرّج لتدريس صرف اللغة ونحوها". ومن موادّ الدراسة الحساب، فضلًا عن التاريخ، والجغرافيا، ودروس الأشياء، ومبادئ اللغة الروسيّة. وكان البرنامج التدريسيّ يخصّص أوقاتًا للرياضة البدنيّة، وأخرى للترنيم، وغيرها للنزهة في البرّيّة. وحين إنهائه دروسه فيها عام ١٩٠٢، وتقديرًا لِما أظهره من التفوّق في دروسه وسلوكه، قرَّرَت الجمعيّة الإمبراطوريّة إرساله على نفقتها إلى دار المعلّمين الروسيّة– "المدرسة المسكوبيّة"– في الناصرة[٣].

في الناصرة (١٩٠٢– ١٩٠٦)

ودّع ميخائيل أهله والشخروب أوائل أيلـول من العام ١٩٠٢ قاصدًا، برفقة خاله، مدينة بيروت أوّلًا. ولـم يكن بحوزته من النقود غير ريال مجيديّ واحد أعطته إيّاه أمّه لينفق "منه في الطريق، وفي ابتياع ما قد يستهوي[ه] من أغراض ومآكل لا تقدّمها [...] المدرسة"

---

[١] نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الأولى**، مرجع سابق، ص ٦٣. يُراجَع أيضًا: نعَيمه، نديم، **ميخائيل نعَيمه طريق الذات إلى الذات**، بيروت، المطبعة الكاثوليكيّة، ١٩٧٨، ص ٨. والشُّخْرُوب "تحريف طفيف لكلمة عربيّة فصيحة هي "الشُّرْخوب" ومعناها "عَظْم الفقار"". ولعلّه "دُعيَ كذلك لأنّ الطريق القديم الذي يمرّ في أسفله، ويَصِلُ سهل البقاع ببسكنتا مرصوف بالحجارة"، وقد رصفته يد الطبيعة لا الإنسان، وهو لذلك يُشبِه "السلسلة الفقريّة" (**سبعون، المرحلة الأولى**، مرجع سابق، ص ٤٢).

[٢] مدرسة بسكنتا هذه كانت عبارة عن غرفتين "في الدور الثاني من علّيّة"، واحدة للصغار، وثانية للكبار "من سنّ العاشرة وما فوق"، وكان فيها معلّمان. وكان "وجهاء الطائفة الأرثوذكسية في بسكنتا يعتزّون بأنّهم هيّأوا لطائفتهم مدرسة بغرفتين ومعلّمَين من بعد أن كانت لهم مدرسة تنتقل من كنيسة إلى كنيسة" (نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الأولى**، مرجع سابق، ص ٥٥.

[٣] المرجع نفسه، ص ٨٣. وبلاد الروس كانت تُعرَف في اللغة الدارجة بـ"بلاد المِسْكُبْ"، و"الموسكوبي" نسبة إلى موسكفا أو موسكو انقلبت إلى "مِسْكُوبي" (يُراجَع المرجع نفسه، ص ٧٤، وص ١١٤).

لطلّابها. أمّا نفقات السفر من بيروت إلى حيفا فقد تكفّلت بها الجمعيّة الروسيّة الفلسطينيّة في بيروت. ومن مرفإ هذه المدينة أقلّه قارب صغير إلى الباخرة "Jolie"، التي أقلّته بدورها إلى مرفإ حيفا، فبلغه بعد سفر استغرق ليلتَين ونهارًا واحدًا. ومن مدينة حيفا نقلته عَرَبَة إلى الناصرة، و"بعد ثماني ساعات من السير"، توقّف الحوذيّ بها في "زقاق ضيّق أمام بناية من ثلاثة طوابق"، معلنًا الوصول إلى "مسكوبيّة" الناصرة.

في الناصرة درس ميخائيل تاريخ روسيا، والحساب، والجغرافيا، واللغة العربيّة وآدابها. وكان يجتهد كثيرًا، ويبذل عناية خاصّة في درس اللغة الروسيّة التي لم تكن معرفته بها لدى التحاقه بمدرسة الناصرة "تتعدّى المئة من المفردات في أبعد تقدير".

ومنذ سنته الدراسيّة الأولى في الناصرة كان حلم السفر إلى روسيا يراوده باستمرار. لذا كان همّه الأكبر أن يُتقن اللغة الروسيّة، كما يتقن العربيّة، لكي يستطيع أن يحقّق أمنيته هذه. وشروط الدراسة في روسيا معروفة: إنّها "تقضي بأن ينهي الطالب سنته الدراسيّة الرابعة بتفوُّق على جميع أقرانه في دروسه وفي سلوكه. وإذا تعادلَ طالبان فقد تختار المدرسة الاثنين معًا". ويقول هو نفسه، واصفًا هذا "الحلم": "كنت أنام وأقوم والسفر إلى روسيا هو الأمنية الكبرى الكامنة في أعماق قلبي. إنّه لَفخر لي عظيم أن أكون المختار من بين رفاقي العشرين. وإنّها لَفرصة لي نادرة أن أكتسب المزيد من العلم في بلاد أنجبت تولستوي. ولكن... هل يتحقّق الحلم؟"[١].

وكان من عادة الطلّاب في الناصرة أن يُمضي كلٌّ منهم فترة الصيف في مسقط رأسه. وهكذا فإنّ نعيمه كان يعود خلال هذا الفصل إلى بسكنتا، ويقضيه بين أهله في الشخروب. وعند انتهاء العطلة الصيفيّة كان يعود إلى الناصرة، ويستأنف الدراسة في عام دراسيّ جديد بهمّة عالية، ونشاط متجدّد.

وطَوال فترة السنوات الأربع التي قضاها في الناصرة كان الشعور الدينيّ العميق، الذي حمله معه من سفح صنّين، يزداد عمقًا ورسوخًا. ففي الناصرة "عاش يوسف النجّار وخطيبته العذراء مريم". وعلى أرضها "دَرَجَ، أوّل ما دَرَجَ، الطفل العجيب الذي تُسَبِّح باسمه الملايين من الناس شرقًا وغربًا". وكان يلازمه شعور بأنّه، وهو في أرجاء فلسطين وحيثما مشى، "لَفِي دنيا من السحر والبَرَكة". ولطالما انسلخ، وهو في نزهاته القصيرة أو في رحلاته الطويلة، عن نفسه ورفاقه، وتخيّل المسيح وتلاميذه "ماشين في الطريق الذي" يمشون عليه، أو يتخيّله "جالسًا وحده، وفي حالة انخطاف روحيّ، تحت تلك الشجرة أو عند هاتيك الصخرة".

وأخيرًا، وبعد انقضاء سنته الدراسيّة الرابعة في مدرسة الناصرة، ها هو "الحلم" على وشك أن يتحقّق. فالامتحانات قد انتهت، والمعلّمون قد أكملوا التصحيح، وانتهوا من وضع المعدّلات السنويّة، والطلّاب يترقّبون ساعة الصفر لإعلان "الحدث العظيم". ولمّا دعاهم الرئيس للاجتماع في الردهة الكبرى، واصطفّوا في جانب منها، ووقف الأساتذة في الجانب الآخر، طلب منه الوقوف أمامه، وأبلغه أنّ المدرسة قد اختارته لمتابعة الدراسة في روسيا، مكافأة له على اجتهاده، وعلى سلوكه. فتحقّق "الحلم"، وكان تحقيقه "حدثًا عظيمًا" " غيّر مجرى حياته تغييرًا جذريًّا.

ودّع نعيمه الناصرة مطالع صيف ١٩٠٦، وقفلَ راجعًا إلى لبنان، برًّا لا بحرًا هذه المرّة، فقطع المسافة بين الناصرة وبيروت "آنًا على ظهر الحمير، وآنًا على الأقدام"، لأنّ مدرسة الناصرة اختارت للذين "دربهم يمرّ في بيروت" أن يقطعوها هكذا. ولمّا وصل إلى بيروت، خطر له أن يزور أحد أنسبائه في "معلّقة زحلة". فقصدها "بالسكّة الحديد"، في حافلةِ قطارٍ من الدرجة الثالثة. وفي زحلة، وبناء على مشورة

[١] نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الأولى**، مرجع سابق، ص ١٤١. وفي موضع سابق من كتابه هذا (ص ١٢١)، يشرح نعيمه أنّ منهاج الدراسة في مدرسة الناصرة "يمتدّ لستّ سنوات مُقسَّمَة على ثلاثة صفوف – لكلّ صفّ سنتان".

نسيبه الذي علم أنّه مسافر للدرس في روسيا، استبدل "القمباز" ببذلة إفرنجيّة. وبعدما أمضى أيّامًا في "المعلّقة" عاد إلى بسكنتا، وأمضى ما تبقّى من الصيف بين أهله في الشخروب.

پولتاڤا Poltava (١٩٠٦– ١٩١١)

بانقضاء صيف ذاك العام، ١٩٠٦، ودّع نعيمه أهله في بسكنتا، وهبط إلى بيروت. وفي هذه المدينة بدّل "بالطربوش برنيطة من القشّ القاسي"، وركب باخرة روسيّة أقلّته إلى مرفإ "أوديسّا" في أوكرانيا، وهو أحد أهمّ المرافئ الروسيّة على البحر الأسود. وكان من نصيبه أن دخل "السّمِنار الروحيّ" في مدينة پولتافا، وهي "عاصمة ولاية شاسعة تحمل اسمها وتقع في قلب أغنى منطقة في روسيا"، وفي جوار هذه المدينة "وقعت المعركة الحاسمة بين بطرس الأكبر، وكارلوس الثاني عشر الأسوجيّ، فكان النصر فيها للروس"، وتاريخ هذه المعركة يعود إلى ٨ تمّوز ١٧٠٩.

و"السّمِنار" هو "مدرسة ثانويّة، أو فوق الثانويّة بقليل". وكان لكلّ أبرشيّة في كلّ ولاية "سمِنار" تُنفِق عليه، وتستقلّ بإدارته، الكنيسة المُمَثَّلة بـ"السينودوس" أو "المجمع المقدَّس". والبرنامج الدراسيّ في "السّمِنارات" يتوزّع على سنوات ستّ: الأربع الأُولى مخصَّصة "للدروس العلمانيّة وبعض الموادّ الدينيّة"، والسنتان الباقيتان "للطقوس والعقائد الكنسيّة". أمّا نفقات دراسة نعيمه في "سمِنار" پولتافا فبتمويل من الجمعيّة الفلسطينيّة لطلّاب دار المعلّمين في الناصرة التي كانت تخصّص، لكلّ طالب من طلّابها، منحة تخوّله الدراسة لفترة ستّ سنوات، "بما في ذلك المأكل والمشرب والكساء والمأوى"، يُضاف إلى ذلك مبلغ نقديّ قدره "ستّة روبلات شهريًّا بمثابة خرجيّة".

انتسب نعيمه إلى سمِنار پولتافا، إذًا، وسرعان ما تأقلم مع نمط الحياة السائد فيه. وساعده كثيرًا على سرعة التأقلم رفيقه في "مِسكوبيّة" الناصرة ميخائيل اسكندر، من مدينة حمص، الذي كان قد سبقه إلى هناك. وراقه كثيرًا أن يرى نفسه بالزيّ الخاصّ بهذا النوع من المدارس، وهو عبارة عن "بذلة من الجوخ الأسود، على سترتها صفّان من الأزرار المعدنيّة، وعلى كلّ زرّ صورة النسر ذي الرأسين– شارة الإمبراطوريّة الروسيّة!".

ابتداءً من ٢٣ آذار سنة ١٩٠٨ راح نعيمه يدوّن يوميّاته باللغة الروسيّة. ولقد واظَبَ على هذه العادة حتّى تاريخ ٢١ نوّار من العام التالي. والذي دفعه إلى هذا التدوين، وعجَّلَ في تحقيقه، مطالعته ليوميّات "نيكيتن"، وقراره الاقتداء به، وكتابة يوميّات على غراره[١]. وفي كتابه **سبعون، المرحلة الأولى**، يختار نعيمه قسمًا من هذه "اليوميّات"، وينقلها إلى القارئ. فاليوميّة الأولى منها هي التي تعود إلى تاريخ ٢٣ آذار ١٩٠٨، وفيها يشرح الدافع الذي حداه على كتابة يوميّات، والأخيرة تعود إلى تاريخ ٢١ نوّار ١٩٠٩، ومن جملة وقائعها عزمه على العودة إلى لبنان لقضاء الصيف فيه، بين أهله وخلّانه.

وفي يوميّات نعيمه هذه أصداء لما كان يجري في بلاده من وقائع وأحداث. فحين أعلن الباب العالي سنة ١٩٠٨ الدستور الذي يضمن الحرّيّة لرعايا السلطنة العثمانيّة في مختلف الولايات، وانطلقت أقلام الكتّاب اللبنانيّين تشيد بهذه الخطوة، وتعتبرها بداية فجر جديد؛ نرى نعيمه يبدي مخاوفه من سرعة تبدّدِها جرّاء إقدام مانحها على انتزاعها بمثل السرعة التي أعطاها، وعدم مقدرة مواطنيه "على الانتفاع بتلك الحرّيّة". "وصدق حدس نعيمه، لأنّ الحرّيّة التي منحها السلطان العثمانيّ للولايات بموجب الدستور لم تكن إلّا بمثابة سحابة صيف. واستمرّ الليل أشدّ اسودادًا"[٢]. وفي يوميّة أخرى يذكر أنّ صديقه نسيب عريضة أرسل إليه عددًا "من جريدة عربيّة تصدر في

[١] المرجع نفسه، ص ١٧٨– ١٨١. وفي حاشية على الصفحة ١٨١ من المرجع نفسه، يعرّف نعيمه بالشاعر الروسيّ على النحو التالي: "شاعر رقيق جدًّا، توفّيَ في أواسط القرن الماضي. وكان هو الآخر من طلّاب إحدى السّمِنارات. وقد أصدر كتابًا بعنوان "يوميّات طالب في السّمِنار"".

[٢] جبر، جميل، **ميخائيل نعيمه في سيرته وأدبه**، الطبعة الأولى، بيروت، نوفل، ٢٠٠٦، ص ٨–٩.

نيويورك، وفيه أنّ لبنان رفض أن يرسل ممثّلًا عنه إلى مجلس "المبعوثان"، وآثر أن يبقى مستقلًّا". ويعقّب نعيمه على هذا الحدث بأنّ بلاده "تجتاز اليوم مرحلة من أدقّ مراحل حياتها، وهي في أمسّ الحاجة إلى رجال مثقّفين يوجّهون خطاها. [...]. وأنا أريد أن أكون واحدًا من هؤلاء الرجال".

وبالفعل، عاد نعيمه إلى لبنان صيف العام ١٩٠٩، وكان قد أنهى بنجاح ارتاحت إليه نفسه سنته الثالثة في "السّمِنار"، وهي السنة التي كانت بمثابة "حجر الزاوية في بناء" مستقبله[١]. وبانقضاء هذا الفصل هبط إلى بيروت، وسافر على متن الباخرة الروسيّة إلى "أوديسّا"، عائدًا إلى پولتاڤا، ليبدأ سنته الدراسيّة الرابعة.

لم يَكَد الربع الأوّل من السنة الدراسيّة الرابعة ينتهي، حتّى أعلن طلّاب الصفوف الأربعة الأولى في المدرسة الإضراب عن الدرس، "وأقفلوا الأبواب في وجه أساتذتهم، وراحوا يطالبون بحرّيّاتهم". وقد لجأت المدرسة إلى طردهم، وأَبقَت فقط على طلّاب الصفّيَن الأخيرَين لأنّهم لم يشاركوا في الإضراب، وكان نعيمه في عداد الذين طُردوا. وبعد فترة قصيرة أُعيدَ فتح جميع الصفوف إلّا الرابع، وهو صفّ نعيمه، لأنّ هذا الصفّ هو الذي قاد الإضراب. وبعد سنة سُمح لطلّابه بالعودة إلى دروسهم، باستثناء "المحرّضين" وقد اعتُبِرَ نعيمه في عدادهم، فمُنعوا من العودة إلى المدرسة بشكل نهائيّ وسُمِح لهم بتقديم امتحان عن صفّهم في صيف العام ١٩١١. أمّا نعيمه، وبناءً على عريضة رفعها إلى الإدارة في ١٩ شباط ١٩١١، فقد سُمِحَ له بالتقدّم من امتحانات هذه السنة في النصف الأوّل من آذار، ونال شهادته، وقفل بعد أيّام عائدًا إلى وطنه.

أهميّة مرحلة پولتاڤا

لقد كانت مرحلة پولتاڤا مرحلة خصبة جدًّا في حياة نعيمه. ففي هذه المرحلة أُتيحَ له أن يتعرّف إلى عالم جديد مختلف كلّ الاختلاف عن الأجواء التي كانت سائدة في بلاده، وفي فلسطين حيث قضى سنوات أربع في مدرسة الناصرة. لقد تمكّنَ من اللغة الروسيّة وأتقنها، وغاص في نتاج الكتّاب الروس الغنيّ، شعرًا ورواية وفنونًا أخرى. وأُولى محاولاته الشعريّة كانت باللغة الروسيّة. وفي **سبعون، المرحلة الأولى**، ينقل إلى العربيّة، عن "يوميّاته" التي وضعها بالروسيّة، وتحديدًا عن "اليوميّة" الأولى التي تعود إلى تاريخ ٢٣ آذار ١٩٠٨، ما كان يعتمل في قلبه من لواعج الحنين إلى لبنان، والتغنّي بفتنته وجماله:

لو كنت شاعرًا لغنّيت فتنة محاسنك يا لبنان
يا مهدَ صباي وقِبْلَةَ أفكاري
أجل
لغنّيت شماريخَك[٢] البيض
وأغوارَك الساحرة
حيث لي بيتٌ وأهل.
وحيث الأرز يُخْبِرُ عمّا كان،
والجداول تتدفّق فضّة،
والعيش طيّبٌ في بساطته،
والجمال لم تشوّهه يد الإنسان.

[١] نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الأولى**، مرجع سابق، ص ٢٤٢- ٢٤٤. وكان نعيمه قد أمضى، قبل ذلك، صيف العام ١٩٠٧ في الوطن (المرجع نفسه، ص ١٩٤).

[٢] شِمْراخ جمع شَماريخ، ومن معانيه رؤوس الجبال أو أعالي السحاب.

وفي "يوميّة" أوّل نيسان يذكر أنّه انتهى، قبل يومين، من نظم قصيدته "دَفْنُ الحبّ"، وأنّه تلاها على عدد من رفاقه، ولم يسمع منهم غير كلمات الإطراء والتشجيع. كذلك فهو يذكر، في هذه اليوميّات، قصيدة "المتوحّدة" التي عرضها على أفرامنكو، المرَبّي الجديد في السِّمِنار، فأدهشته، "وأدهشَت الكثير ممّن تلاها عليهم [...]. وممّا زاد في دهشتهم [أنّه، وهو] الغريب عن اللغة الروسيّة، [يتصرَّف] بها تصرُّف الواقف على أدقّ قواعدها وقوالبها وخفاياها"[1]. أمّا قصيدته الأبرز من هذه المرحلة، وباللغة الروسيّة، فلعلّها "النهر المتجمّد". ولقد نظمها "بسهولة متناهية"، وكأنّها كانت تُملى عليه. والذي أوحى إليه بنظمها منظر "نهر صُولا" الذي يجري بالقرب من "غيرا سيموفكا"، المزرعة الأوكرانيّة الوادعة حيث يقطن رفيقه في "السمِنار" أليوشا، وشقيقته ڤارنا وزوجها كُوتْيا. وقد سبق لنعيمه أن قام بعدّة نزهات في القارب في مياه هذا النهر برفقة صديقه أليوشا وبعض الفتيات، ثمّ مشى على صفحته المتجمّدة وهو في طريقه، مع صديقه "أليوشا"، من مدينة "رومني" حيث قضى إجازة حميمة في منزل كُوْتْيا وڤاريا، عائدًا إلى "غيرا سيموفكا".

وعن حصيلة هذه الفترة التي قضاها في روسيا، وعميق الأثر الذي تركته في نفسه، يقول نعيمه إنّها "كانت فترة جنًى أدبيّ وفير، وفترة غليان فكريّ، وفوران عاطفيّ، وامتداد روحيّ. وكان منها أن فتحت عينيّ على الضحاضيح[2] التي كانت تعيش فيها بلادي- بل جميع البلاد العربيّة- بل الشرق كلّه، وبخاصّة في دنيا الفكر والفنّ والأدب". وقد زوّدته خبرة في الحياة كان "في أَمسّ الحاجة إليها". لقد عرف المرأة، وولج قلبها، "والرجل الذي لا يعرف قلب المرأة لا يعرف قلبه". ولا بدّ لنا من التساؤل، هنا، كيف عرف نعيمه قلب المرأة، وإلى أين قادته تلك المعرفة؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه في الفقرة التالية.

ليدا، ومارُوسْيا، وڤاريا

في ختام حديثنا عن المرحلة الأوكرانيّة في حياة نعيمه، لا بدّ من التوقّف قليلًا عند الفتاتَين ليدا ومارُوسْيا، وعند المرأة ڤاريا، لأنّ لهنّ في حياته، لاسيّما الثالثة منهنّ، محطة بارزة بعيدًا عن أجواء الدرس والتحصيل.

وفي كتابه **سبعون، المرحلة الأولى**، يتوقّف نعيمه مطوَّلًا عند هذه الناحية من حياته في روسيا. ونذكر، أوّل ما نذكر، تلبيته ورفيقه في السمِنار "أليوشا" دعوة "فتاتَين من "الجمناز" للخروج معهما في نزهة إلى غابة الدير". لكنّ العفّة انتصرت على الشهوة عند نعيمه بعد صراع مرير بينهما[3]، ولم تنشأ بينه وبين تلك الفتاة التي كانت برفقته أيّ علاقة حميمة. وفي هذا المؤلَّف أيضًا يتحدّث نعيمه عن علاقتَين له بفتاتين ثانيتين، الواحدة منهما هي "ليدا"، ابنة أستاذ الأدب. أمّا الثانية فهي "ماروسْيا" ابنة عمّ الأولى، وكانت حينها في الخامسة عشرة و"تدرس في "مدرسة الأبرشيّة" التي بقرب السّمِنار"، ووالدها "كاهن في قرية بعيدة عن پولتاڤا، وأحد أبنائه رفيق [له] في الصفّ". وقد أمضى نعيمه قسمًا من إجازة عيدِ ميلادٍ في منزل هذه العائلة بدعوة من رفيقه. وعلاقته بهاتين الفتاتين كانت مجرّد علاقة عابرة سرعان ما انتهت، وقد قطعها بنفسه مخافة أن يسبّب "لهما ولأهلهما المحافظين شيئًا من الانزعاج من بعد أن [أصبح] في نظر الإدارة "ثائرًا خَطِرًا" ".

---

[1] نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الأولى**، المرجع السابق، ص ٢٣٠- ٢٣١. وللمزيد حول المرَبّي الجديد أفرامنكو تُراجَع النبذة التي يُوردها نعيمه عنه على الصفحة ٢٢٩ من المرجع نفسه.

[2] الضَحْضاح والضَحْضَح هو الماء اليسير أو إلى الكعبَين أو ما لا غرق فيه لِقُرْبِ قعره: البستاني، المعلّم بطرس، **محيط المحيط، قاموس مطوّل للغة العربيّة**، طبعة جديدة، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٧، ص ٥٣٠.

[3] نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الأولى**، مرجع سابق، ص ١٩١- ١٩٤. ويذكر نعيمه، في حاشية على الصفحة ١٩٢ من المرجع نفسه، أنّ وصف هذه النزهة يستغرق "٣٦ صفحة من اليوميّات"، وأنّ ما عرضه على الصفحات المشار إليها هو تلخيص لجميع وقائعها.

تبقى علاقة أخيرة تنبغي الإشارة إليها، وهي علاقته بـ"ڤاريا"، المرأة المتزوّجة من "كُوْتْيا"[١] وشقيقة صديقه "أليوشا"، التي استمرّت لسنوات، وكادت تؤدّي إلى الزواج بينهما. ابتدأت هذه العلاقة بينهما سنة ١٩٠٨، يوم زار نعيمه برفقة صديقه مزرعة "غيرا سيموفكا" الريفيّة، وأقام لفترة في منزل "ڤاريا" وزوجها "كُوْتْيا"، واللذين يمتلكان منزلًا آخر في مدينة "رومني". ويسهب نعيمه، في كتابه **سبعون، المرحلة الأولى**، في وصف هذه العلاقة بينهما: كيف بدأت، وكيف تطوّرت، وكيف انتهت أخيرًا بينهما، بعد أن فشل مشروع الزواج الذي خطّطت له، والقاضي بإرسال زوجها إلى أحد الأديار الروسيّة في جبل "آثوس"[٢] ليعيش فيه، ورفض أيّ دير قبوله لأنّه متزوّج وزوجته لا تزال على قيد الحياة، وعودته إلى منزله بعد فترة تُقدَّر بالشهر على مغادرته إلى ذلك الدير[٣].

ولاية واشنطن عوض باريس

ذكرنا في فقرة سابقة، ونقلًا عن **سبعون، المرحلة الأولى**، أنّ نعيمه أنهى امتحانات سنته الرابعة في السّمِنار في النصف الأوّل من آذار عام ١٩١١، ونال شهادته، وبعد أيّام كان في طريقه إلى لبنان.

وفي الفترة القصيرة التي قضاها بين أهله في الشخروب، راح يُعِدُّ "العُدَّة للسفر إلى باريس في أوائل أيلول" لدراسة الحقوق في جامعة السوربون . فدرسَ من الفرنسيّة ما استطاع بنفسه، ونال إعفاءً من رواتب الدرس في هذه الجامعة بمسعى بَذَلَه بطريرك الروم الأرثوذكس في دمشق غريغوريوس حدّاد لدى قنصل فرنسا. وكان يزيد من عزمه على السفر إلى باريس وجود صديقه ميخائيل اسكندر فيها، والذي كان قد سبقه إليها لمتابعة الدراسة في جامعتها[٤].

لكنْ طرأ ما غيّر خطّة نعيمه في التهيُّؤ للسفر إلى باريس. وما أدّى إلى هذا التغيير عودة أخيه أديب من الولايات المتّحدة لقضاء فترة بين أهله في بسكنتا، ولانتقاء عروس من بناتها. وما كان منه إلّا أن أقنعه بالسفر معه إلى العالم الجديد، ومتابعة الدراسة في جامعة واشنطن، وهكذا صار. "وفي أوائل تشرين الثاني من تلك السنة –١٩١١– كان هو وأخوه "وعروسه التي انتقاها من بنات بسكنتا، في [طريقهم] الطويل، الطويل من سفح صنّين إلى شواطئ المحيط الهادئ".

والا والا (Walla Walla)

وصل نعيمه إلى "والا والا"[٥] قُبَيْل عيد الميلاد من سنة ١٩١١. وفي تلك المدينة كان يقيم أخواه، أديب وهيكل. الأوّل احترف التجارة وكان له "مخزن للمفروشات (الموبيليا) بشراكة رجل أميركيّ"، والثاني امتهن حرفة الحلاقة، وكان يمتلك صالونًا "يعمل فيه عشرة حلّاقين".

---

[١] خصّص نعيمه فصلًا مستقلًّا للحديث عن هذا الرجل، ويُراجَع بشأنه: نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الأولى**، مرجع سابق، ص ٢٠٢– ٢٠٥، هذا فضلًا عمّا أوردَه عنه في مواضع أخرى من هذا الكتاب.

[٢] "جبل في جنوب مكدونيا– على بحر أيجه– تقوم عليه وتستقلّ به منذ أكثر من ألف عام أديار كثيرة للروم الأرثوذكس، ويُحَرَّم على الإناث– حتّى من الحيوان– دخوله" (نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الأولى**، مرجع سابق، ص ٢٦٦، حاشية رقم ١).

[٣] وللمزيد من التفاصيل حول علاقة نعيمه بهذه المرأة يُراجَع كتابه: **سبعون، المرحلة الأولى**، مرجع سابق، ص ١٩٩– ٢٠٠، ٢١٣– ٢١٧، ٢٢٥– ٢٢٨، ٢٥٦– ٢٥٧، ٢٦٤– ٢٦٧. ونشير إلى أنّ هذه المرأة قصدت لبنان، بعد عام من وداع نعيمه لها، آملة في "رؤية حبيبها"، لكن لم يتسنَّ لها ذلك، لأنّ نعيمه كان "في أميركا القصيّة" في هذه الأثناء: نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الثانية**، الطبعة السادسة، بيروت، مؤسّسة نوفل، ١٩٨٣، ص ٢١– ٢٢.

[٤] لكنّ صديقه ميخائيل اسكندر اضطرّ بعد فترة، لأسباب ماديّة، إلى مغادرة باريس إلى نيويورك. وللمزيد حول أسباب هذه المغادرة يُراجَع: نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الأولى**، مرجع سابق، ص ٢٨٠.

[٥] "والا والا" اسم هندي أميركيّ يعني "المياه الكثيرة" (**سبعون، المرحلة الأولى**، مرجع سابق، ص ١٤٠)، وهي مدينة صغيرة تقع "في الجانب الشرقيّ من ولاية واشنطن، وفي قلب بقعة من الأرض غنيّة جدًّا بمحاصيلها الزراعيّة [...]. أمّا سكّانها في ذلك الزمان فما كانوا يتجاوزون العشرين ألفًا. وهم خليط جاؤوا من حوض الأبيض المتوسّط، ومن شرقي أوروبّا وشماليها.

بعد فترة قصيرة من وصوله إلى "والا والا" انصرف نعيمه إلى تعلُّم اللغة الإنكليزيّة بجهده الخاصّ أوّلًا، مستعينًا بقاموس إنكليزيّ عربيّ وضعه يوحنّا أبكاريوس، وكتيّب وضعه "مهاجر سوريّ لنجدة الراغبين من العرب في تعلّم الإنكليزيّة"؛ ثمّ بدخوله إلى "مدرسة ابتدائيّة بصفة سامع لا أكثر" لمدّة شهريَن، انتقل بعدها إلى مدرسة ثانويّة حيث اختار بعض الموادّ التي تهمّه، ورضيَ أن يُعامَل معاملة "قانونيّة"، أي أن يُطبَّق عليه ما يُطبَّق على "باقي التلاميذ من إعداد الدروس والمذاكرة".

لم يكن قد مضى على وجود نعيمه في البلاد أكثر من ثمانية أشهر حتّى كتب رسالة بالإنكليزيّة يطلب "فيها الدخول إلى جامعة الولاية"، وجاءه الجواب بالقبول. وهكذا انتسب إلى جامعة واشنطن أوائل خريف العام ١٩١٢. وبعدما تبيّن له أنّ الجامعة على استعداد لمعادلة شهادته الروسيّة بسنتين من كلّيّة الآداب، وأنّ برنامج كلّيّة الآداب يستغرق أربع سنوات وبرنامج الحقوق ثلاثًا، وأنّ بإمكان من أراد الجمع بين الاختصاصين أن يحصل على درجته الجامعيّة "في كلتيهما في ستّ سنوات بدل السبع"، قرّر أن يجمع بين الفرعين. ومنذ انتسابه إلى الجامعة خصَّص له أخواه مبلغ ثلاثين دولارًا في الشهر. وكان ينفق من هذا المبلغ على قاعدة المثل السائر "على قدّ بساطك مدّ رجليك".

باكورة أعماله الأدبيّة

في ربيع سنته الثانية في كلّيّة الآداب، والأولى في كلّيّة الحقوق، تسلّم عدد نيسان ١٩١٣ من مجلّة الفنون التي تصدر في نيويورك، والتي أنشأها نسيب عريضة رفيقه في مدرسة الناصرة. وفي هذا العدد رأى رسمًا حافلًا "بالمعاني والمواهب" هو رسم جبران خليل جبران، وقرأ مقال العدد الافتتاحيّ من قلم جبران وعنوانه "أيّها الليل"، وفيه يخاطب جبرانُ الليلَ هكذا:

"يا ليلَ العشّاقِ والشعراءِ والمُنْشِدِين!
يا ليلَ الأشباحِ والأرواحِ والأَخْيِلَة!
يا ليلَ الشوقِ والصبابةِ والتذكار!".

وفي العدد عينه قرأ مقالًا آخر بقلم أمين الرَّيحاني عنوانه "بلبل الموت والحياة"، وممّا جاء فيه: "في القفص يغرّد البلبل وفي الأودية تولول الرياح". وكان من نتيجة اطّلاعه على عدد "الفنون" أن دبّج مقالًا مستفيضًا عنوانه "فجر الأمل بعد ليل اليأس" نفث فيه كلّ ما في صدره "من نقمة على الأدب المُحنَّط"، واختتمه بنقدٍ لقصّة **الأجنحة المتكسّرة** لجبران، والتي كانت "الصحف العربيّة في نيويورك قبل ذلك بشهور قد استقبلتها بالكثير من الإعجاب والتكبير". وأرسل المقال إلى "الفنون" التي أصدرته على صفحاتها في عدد من أعدادها التالية. وعلى صفحات هذه المجلّة نشر نعيمه، لاحقًا، مقالات أخرى لاقت الاستحسان والقبول. وبعد توقُّف "الفنون" السريع عن الصدور، في أيّار ١٩١٤، راح ينشر مقالاته في جريدة "السائح" النصف أسبوعيّة التي أنشأها في نيويورك صديقه الآخر في مدرسة الناصرة عبد المسيح حدّاد. وأوّل ما نشره على صفحات هذه الجريدة مقال "أخماس وأسداس"، وفيه يُطري على فنّ كاتب **دمعة وابتسامة** (الكتاب لجبران)، "وبراعته في تلوين الكلام، وابتكار الاستعارات والتشابيه، وبثّ الحياة حتّى في الجماد"، لكنّه يأخذ عليه "توغُّله في الرومنطيقيّة والسنتيمنتاليّة".

ولكنّها، على ضآلة حجمها، كانت السوق الرئيسيّة لجميع المزارع حواليها": نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الثانية، ١٩١١– ١٩٣٢**، الطبعة السادسة، بيروت، مؤسّسة نوفل، ١٩٨٣، ص ١٤.

الحرب العالميّة الأولى

في الثامن والعشرين من حزيران ١٩١٤ اغتال شابّ صربيّ وليّ عهد النمسا في سرايفو عاصمة مقاطعة البوسنة. وكانت حادثة الاغتيال هذه الشرارة التي أضرمت الحرب العالميّة الأولى. وفي بداية الحرب أعلنت الولايات المتّحدة الأميركيّة حيادها التامّ بين المعسكَرَين المتحاربَين. وبدخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا والمجر، أخذ قلق نعيمه على مصير أهله وبلاده يزداد. وأحكم الأتراك خناقهم على لبنان، وألغوا نظام امتيازاته أو ما كان يُعرَف بنظام المتصرفيّة، وضربوا الحصار عليه. وفي ربيع العام ١٩١٥ اجتاح الجراد لبنان، فقضى "على كلّ أخضر في كلّ حقل وبستان"، وأحاق الجوع بالناس من كلّ جانب. ولمّا بلغت أخبار المجاعة مسامع المهاجرين، شرعوا في تشكيل اللجان لإغاثة المنكوبين في بلادهم. ودُعِيَ نعيمه للانضمام إلى جمعيّة "س. ح." (سوريا الحرّة)، فانضمّ إليها. وبعد تخرّجه من الجامعة، وسفره إلى نيويورك عام ١٩١٦، أُنيطت به "جميع مهامّ الجمعيّة"، وظلّ يقوم بها "إلى أن ضاق" وقته دونها، فتنازل عنها لغيره[١].

في غمرة هذه المتسارعات والأحداث حدث أن افتتحت روسيا قنصليّة لها في "سياتل". وقام نعيمه بزيارة القنصل الروسيّ للتعارف. ونتج عن تلك الزيارة أن أصبح "السكرتير المعاوِن في القنصليّة"، يعمل لمدّة ساعتين بعد الظهر، ويتقاضى عنهما خمسين دولارًا في الشهر. وبعد عام ازداد هذا المبلغ ليصبح خمسةً وستين. وهكذا تمكّن نعيمه أن يرفع أثقاله عن أخوَيه في "والا والا" ويساعدهما في مدّ أهله في لبنان بالمال.

نعيمه الثيوصوفيّ

في بداية سنته الثالثة في الجامعة، جمعت الظروف نعيمه بشاب اسكتلندي ينتمي إلى الجمعيّة الثيوصوفيّة[٢]. وهذا الشابّ كان شريكه في الغرفة الصغيرة التي كان يقيم فيها قرب الجامعة. وكان من نتائج الصداقة مع هذا الشابّ أن انضمّ نعيمه إلى الجمعيّة، وصار يؤمن بعقيدتها في التقمّص، وميزان الثواب والعقاب. وبعدئذٍ أوغل "في درس التعاليم "الباطنيّة" منذ أقدم العصور، وفي درس الديانات "السماويّة" وغير السماويّة. [فأدهشه] ما بينها مِن تقارُب في الهدف والوسيلة على بعد الشُّقَّة في الزمان والمكان". وسيكون لهذه الجمعيّة، وللمبادئ التي تؤمن بها، أعمق الأثر في نتاج نعيمه اللاحق، وفي نظرته الفلسفيّة إلى الكون والحياة.

---

[١] المرجع نفسه، ص ٣٩- ٤٣، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ نعيمه، وفي ربيع العام ١٩١٥، كتب مقالًا بعنوان: "فلسطين مملكة يهوديّة"، ونشرته صحيفة مرآة الغرب في ٢٩ نيسان ١٩١٥. والمقال أعيد نشره في المجموعة الكاملة لنعيمة، المجلّد التاسع، ط. ٢، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨١، ص ٤٤٥-٤٥٠.

[٢] كلمة Théosophia يونانيّة الأصل، مشتقّة من كلمتَي Théos أي الله، وSophia أي الحكمة. وللثيوصوفيّة جذور فلسفيّة ودينيّة وصوفيّة ترقى إلى العهود القديمة، وهي تستمدّ من الأفلاطونيّة الحديثة، ومن الفكر البوذيّ، والكثير من المصادر الأخرى. وأهمّ مرحلة حقّقت نضوج الفكر الثيوصوفيّ كانت مع هيلانة بتروڤنا بلاڤتسكي Helen Petrovna Blavatsky المولودة في روسيا عام ١٨٣١، والمتوفّاة في إنكلترا عام ١٨٩١. وبعد أسفارها العديدة حطّت رحالها في الولايات المتّحدة الأميركيّة حيث التقت الكولونيل هنري ستيل أولكوت Henri Steel Olcott (١٨٣٢- ١٩٠٧) الذي أُعجِب بها. وعام ١٨٧٥ أسّست هيلانة "الجمعيّة الثيوصوفيّة" في نيويورك بمساعدته. تجمع الجمعيّة في معتقداتها الكثير من العقائد الدينيّة، والنظريّات الفلسفيّة، والاكتشافات العلميّة، وتقدّمها كمعتقد واحد للإنسانيّة جمعاء، ليؤسّس لإخاء عالميّ وسلام دائم بين البشر. وقد وضعت للجمعيّة ثلاثة أهداف استطاعت أن تضمن من خلالها انتشارًا واسعًا لها، واستمراريّة مؤثّرة في الأجيال. وهذه الأهداف هي: ١) تشكيل نواة إخاءٍ عالميّ للمجتمع الإنسانيّ من غير تمييز مهما كان نوعه. ٢) تشجيع الدراسات المقارَنة بين الأديان والفلسفات والعلوم، والتركيز على الآداب الآسيويّة القديمة، لاسيّما الفلسفة البراهميّة، والبوذيّة، والزرادشتيّة. ٣) دراسة الأسرار الخفيّة في الطبيعة بكلّ أشكالها الممكنة، وخاصّة القدرات النفسيّة والروحيّة المتّصلة بالإنسان. (الحلو اللحّام، أغات مسعد، **الثيوصوفيّة وأثرها في أدب جبران خليل جبران**، رسالة أُعدّت لنيل شهادة دبلوم دراسات عليا في اللغة العربيّة وآدابها، الفنار، الجامعة اللبنانيّة، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، الفرع الثاني، ٢٠٠١، ص ١٠، ٣١- ٣٣. وللمزيد حول نشأة الثيوصوفيّة، ومصادرها، وأهدافها، وعقائدها في التقمّص، والحلوليّة، وغيرهما، يُراجَع المرجع نفسه، ص ٤- ٧، ص ١٠- ٦٩.

نيويورك مطمح الرماية

تخرَّج نعيمه من جامعة واشنطن عام ١٩١٦، ونال إجازَتَي الآداب والحقوق. وقبل تخرُّجه بفترة كان يتراسل ونسيب عريضة صاحب "الفنون" التي نشر فيها نعيمه أوّل مقالاته، والتي توقّفت سريعًا عن الصدور لأسباب مادّيّة. ومحور المراسلات بينهما كان حول مناشدة عريضة لنعيمه بالقدوم إلى نيويورك، والمعاونة في إعادة "الفنون" إلى الصدور. وأخيرًا حزم نعيمه أمره، وقرّر الذهاب إلى نيويورك. فودّع القنصل الروسيّ في ١٨ آب ١٩١٦، والذي زوّده بتوصيات خطّيّة "لبعض الدوائر الروسيّة العاملة في نيويورك إبّان الحرب"، وعاد إلى "والا والا" لتمضية بقيّة الصيف عند شقيقَيه بغية الراحة. لكنّه، وبدلًا من أن يستريح، ألّف "مسرحيّة **الآباء والبنون** في ثلاثة أسابيع"[١].

نعيمه والماسونيّة

أثناء إقامته في "والا والا"، وبعد فراغه من تأليف مسرحيّته، انصرف نعيمه إلى مطالعة كتاب إنكليزيّ ضخم عنوانه **Morals and Dogma**، وبالعربيّة **الآداب والعقيدة**، وفيه يشرح مؤلّفه عن العقيدة الماسونيّة، والرموز "التي ترافق كلّ درجة من درجاتها". وكان شقيقه أديب الذي ينتمي إلى الماسونيّة، ويبلغ آخر درجاتها وأعلاها (الدرجة الثالثة والثلاثين)، ويرأس محفل "والا الا" لتلك السنة، هو الذي جلب هذا الكتاب إلى بيته. وما كان منه إلّا أن نصح شقيقه بالانضمام إلى الماسونيّة قبل سفره إلى نيويورك، وهكذا كان. فمُنِح نعيمه الدرجة الأولى في محفل المدينة، والدرجتين التاليتَين في محفل نيويورك. لكنّ نعيمه، بعد أن أصبح "معلّمًا" ماسونيًّا، تردَّد على المحفل بضع مرّات، ثمّ انقطع عن زيارته، وعن دفع الرسوم السنويّة المترتّبة على انضمامه إلى الجمعيّة الماسونيّة، فاصلًا بذلك نفسه بنفسه عنها. وقد فعل ذلك لأنّه وجد القسم الأكبر من المنتمين إليها يتلّهون "بالقشور دون اللباب". أمّا هو، وعلى حدّ قوله، فقد أخذ من الماسونيّة لبابها، ولم يحفل بالقشور.

نعيمه في نيويورك

دخل نعيمه نيويورك في خريف العام ١٩١٦. ولدى وصوله قصد مكتب "الفنون" حيثُ استُقبِل استقبالًا حارًّا من قِبَل نسيب عريضة، وعبد المسيح حدّاد، وميخائيل اسكندر، وبعدهم بقليل جبران خليل جبران[٢].

في نيويورك سكن نعيمه في ناحية بروكلن، في غرفة صغيرة في الدور الرابع من بيت عجوز ايرلندية، ببدل أسبوعيّ قدره خمسة دولارات. وبعد أيّام وُفّق في إيجاد عمل له، وهو الضرب على الآلة الكاتبة في مكتب الأسطول التجاريّ الروسيّ لقاء راتب يبلغ ثمانين دولارًا في الشهر. وبعد شهرين انتقل للعمل في مدينة صغيرة في بنسلفانيا تُدعى "بيت لحم"، كسكرتير للمفتّش الروسيّ لدى شركة Bethlehem Steel Co.، وهي شركة كانت تُصنّع نوعًا من القنابل للمدفعيّة الروسيّة. بدأ عمله في هذه الشركة براتب شهريّ قدره مئة دولار، وبعد شهور ارتفع ليبلغ مئة وخمسين. وقبل أن يغادر نيويورك للالتحاق بمركز عمله الجديد، ترجم إلى العربيّة قصيدته "النهر المتجمّد"، ونشرها في "الفنون"، فلاقت استحسانًا كبيرًا. ولما بلغت "الديار العربيّة" راحت الصحف والمجلّات فيها تتناقلها وتنشرها على صفحاتها، وكانت مجلّة "الهلال" أسبقها إلى نشر القصيدة.

تلك الفترة التي عاشها نعيمه في مدينة ريفيّة من مدن ولاية بنسلفانيا "كانت فترة خصب روحيّ برغم سيف الخدمة العسكريّة المصْلَت فوق" رأسه. فهناك كان ينعم في عزلة، كلّ مساء، بعد انتهاء العمل. وكان يندفع في "التفكير أبعد وأبعد، وأعمق وأعمق، في نفس[ه]،

---

[١] المرجع نفسه، ص ٦١– ٦٢. وحول العنوان الذي اختاره لمسرحيّته هذه يذكر نعيمه أنّه عنوان رواية شهيرة للكاتب الروسيّ تورغينيف، وأنّ لا تشابُه على الإطلاق بين المعالجة في العملَين "لا من حيث الأشخاص، ولا من حيث الأحداث، ولا من حيث ما يدور بين الأشخاص من حوار (المرجع نفسه، ص ٦٢).

[٢] المرجع نفسه، ص ٧٦. يُراجَع أيضًا: نعيمه، ميخائيل، **المجموعة الكاملة، المجلّد الثالث، جبران خليل جبران**، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٩، ص ١٦١.

وفي الكون، وفي الإنسان وحياته" [...]". ونتيجة هذه التأمّلات، وللمرّة الأولى في حياته، أحسّ الله قدرةً في داخله. وهذا الإحساس غمره "بفيض من الطمأنينة" الداخليّة. وفي هذه الأجواء شرع نعيمه بكتابة **مذكّرات الأرقش**، وراح يبعث بفصوله الأولى إلى نسيب عريضة الذي يراح ينشرها في "الفنون"، فتلاقي استحسانًا كبيرًا من القرّاء، ومن زملائه، ولاسيّما جبران الذي تمنّى عليه أن يبادر إلى نشرها بالإنكليزيّة[1].

"في شِباك مارس"[2]

في الرابع من حزيران ١٩١٧ أعلنت الولايات المتّحدة الأميركيّة الحرب على ألمانيا، وأصدرت على الأثر تشريعًا يُلزِم جميع الشبّان، بين الحادية والعشرين والحادية والثلاثين، بتسجيل أسمائهم في دوائر خاصّة أُنشئت خصّيصًا لذلك، على أن تُسحَب الأسماء بالقرعة بعد ذلك. فبادر نعيمه إلى تسجيل اسمه، ودُعيَ للخدمة، لكنّه أُعفيَ منها مرّتين، لمدّة نصف سنة كلّ مرّة، لأنّه لا يزال "في خدمة دولة حليفة".

في أوائل عام ١٩١٨ عاد نعيمه من "بيت لحم"، المدينة الريفيّة في بنسلفانيا، إلى نيويورك. وسبب العودة أنّه خسر عمله في الشركة الروسيّة القائمة هناك، بعد أن قضت الثورة البلشفيّة[3] "على جميع المؤسّسات الروسيّة في أميركا التي كانت تعمل لتزويد الجيش الروسيّ بالمؤن والمعدّات. فقضت على العذر الذي كان [يتذرّع] به للتهرّب من الجنديّة". وما إن انتهت الأشهر الستّة الثانية التي أُعفيَ بموجبها من الخدمة العسكريّة بسبب عمله "في خدمة دولة حليفة" حتّى استُدعيَ للخدمة العسكريّة في الجيش الأميركيّ، وكان ذلك في ٢٥ أيّار عام ١٩١٨، وكان أخوه هيكل قد سبقه إلى الجنديّة إذ تطوّع للخدمة العسكريّة إثر دخول أميركا الحرب، وقبل صدور قانون التجنيد بالقرعة. ولبّى نعيمه الدعوة إلى الخدمة العسكريّة الإجباريّة، والتحق بنقطة تطويع المجنَّدين، ومن ثمّة أقلّهم القطار إلى "طرف برّيّة شاسعة من ولاية "نورث كارولينا" "، حيث أقاموا لفترة تقلّ عن الشهر، وبعد انقضائها نقلتهم "ثلاث عشرة باخرة تحمل قرابة خمسين ألف جندي من جنود العمّ سام بعدّتهم ومؤونتهم الكاملة". انطلقت البواخر جميعها، "قُبَيْل الفجر، من ميناء في ولاية فرجينيا"، وسارت "في شبه قافلة تحميها الطرّادات والمدمّرات من كلّ جانب. فالغوّاصات الألمانيّة كانت تزرع الأوقيانوس ليل نهار، وخطرها في كلّ ساعة". وحوالي منتصف تمّوز من العام ذاته- ١٩١٨- وصلت "قافلة البواخر" الأميركيّة إلى ميناء "برست" على المحيط الأطلسيّ في شمالي فرنسا، ومن هناك أقلّتهم القطارات إلى برّيّة بجوار مدينة بوردو (Bordeaux) الفرنسيّة تُدعى "بو ديزير" (Beau Désert) تغصّ بالجنود الأميركيّين، وتزدحم فيها المنشآت الأميركيّة. وفي هذا المعسكر كانت تبلغ الجنود أخبار الجبهات، وكلّها لا يبشّر بقرب انتهاء الحرب. فمعنويّات الألمان التي تحطّمت على أسوار ڤردان Verdun عادت إلى الارتفاع بعد الثورة البلشفيّة، وانسحاب روسيا من الحرب، وانهيار الجبهة الشرقيّة. ومن الشرق كانت تبلغ نعيمه أخبار متقطّعة يكاد لا يصدّقها. فحملة الأتراك على ترعة السويس فشلت، والشريف حسين، شريف مكّة المكرّمة، أعلن الثورة على الأتراك. ولقد وجد في ذلك نبضًا جديدًا مباركًا يسري "في الشرق، وفي العالَم، نبض الحرّيّة والانعتاق من الاستغلال والعبوديّة".

---

[1] المرجع نفسه، ص ٨٣- ٨٥. ويُشار إلى أنّ نعيمه سيلتحق بالخدمة العسكريّة من غير أن يتمكّن من إكمال فصول هذا الكتاب، وأنّه سيعاود إكمالها بعد انتهاء الحرب، وعودته إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة (المرجع نفسه، ص ٨٧). وعن "سيف الخدمة العسكريّة المصْلَت فوق" رأسه يُراجَع ما سيرد في الفقرة التالية عن إعلان الولايات المتّحدة الحرب على ألمانيا وحلفائها، وما لحق بنعيمه جرّاء ذلك.

[2] العنوان هو لنعيمه نفسه، وقد ورد في **سبعون، المرحلة الثانية**، مرجع سابق، ص ٨٢. ومارس هو إله الحرب.

[3] هي التي تُعرَف بثورة أكتوبر (١٩١٧). وقد قام بها "البولشفيك" بقيادة لينين، فأدّت إلى حكم الحزب الشيوعيّ السوفياتيّ، وإقرار النظام الشيوعيّ، وعقد الصلح مع ألمانيا (معاهدة بريست ليتوفسك) عام ١٩١٨. (**المُنجِد في الأعلام**، الطبعة السابعة والعشرون مجدَّدة، بيروت، دار المشرق، ٢٠٠٥، ص ١٩٢).

في تلك البرّيّة، القريبة من مدينة بوردو، كان نعيمه يشارك في حراسة المنشآت الأميركيّة. لكنّ المقام لم يَطُلْ بالجنود هناك، إذ بدأت القيادة بنقلهم إلى الجبهات أواسط تشرين الأوّل. وأُبلغ نعيمه بالمهمّة التي سيُكلَّف بها. إنّها "الاستكشاف وتزويد الأركان بالمعلومات عن سير المعارك"، لتعرف القيادة كيف توجّه النار، وإلى أين تُرسِل الإمدادات. وعليه أن يقوم بهذه المهمّة هو وسبعة أو ثمانية من الجنود. وبعد ذلك كان، هو ورفاقه في السلاح، في الطريق إلى خطوط النار. وعلى الرغم من أنّ الألمان، في هذه الفترة، كانوا "يتراجعون في كلّ مكان"، وبات جليًّا "أنّ الحرب أوشكت على النهاية"، إلّا أنّه ورفاقه في الجنديّة عانوا الكثير من ويلات الحرب، ولبثوا في خطوط النار حتّى مساء التاسع من تشرين الثاني. وحوالي منتصف ليل هذا اليوم أبلغه رفيق له أنّ الحرب انتهت، والهدنة أُعلِنت. فمشوا اليوم التالي بكامله، وقُبَيْلَ ظهر الحادي عشر من الشهر ذاته التقاهم "ضابط فرنسيّ كان يسير وحده"، وحيّاهم بالفرنسيّة، وبصوت عالٍ: «La guerre est finie» " (الحرب انتهت)".

جامعة رين Rennes

بانتهاء الحرب لم يكن لدى الحكومة الأميركيّة من الوسائل ما يتيح لها إعادة ما يقارب المليونين من جنودها في فرنسا في فترة تقلّ عن العام. فأتاحت الفرصة لبعض الجامعيّين منهم ليحصّلوا ما يمكنهم تحصيله في تلك المدّة. وكان نعيمه يرغب في الانتساب إلى جامعة السوربون. لكنّ الموافقة تمّت على إرساله إلى مدينة "رين" (Rennes)، في مقاطعة "بريتانيا" (Bretagne)، شمالي شرقي فرنسا، للالتحاق بجامعتها. فغادر إلى تلك المدينة يوم "الأحد ٢ آذار ١٩١٩"، فبلغها صباح الرابع من الشهر ذاته. وكان عدد الجنود الأميركيّين الملتحقين بهذه الجامعة يبلغ نحو مئة وثمانين. وقد خُصّص لكلّ منهم، فضلًا عن راتبه الشهريّ، مخصَّصات لتكاليف السكن والطعام. واختار نعيمه أن يدرس "تاريخ فرنسا، وتاريخ الأدب الفرنسيّ، والفنّ الفرنسيّ، والقوانين الدستوريّة في فرنسا"، فضلًا عن دروس خاصّة في اللغة الفرنسيّة كانت تُعطى للأميركيّين، وأغلبيّتهم كانت تجهلها، على خلاف نعيمه الذي كان له إلمام متوسّط بها.

قضى نعيمه في تلك الجامعة الفرنسيّة ما يقارب الأربعة أشهر، أعادته بعدها الحكومة الأميركيّة، في إطار خطّتها لإعادة الجنود الأميركيّين إلى بلادهم، إلى الولايات المتّحدة. وهكذا رجع إلى "والا والا" حيث يقيم أخوه أديب وعائلته. وبعد انقضاء حوالي الشهرين بدأ يفكّر بالعودة إلى نيويورك حيث له فيها "رفاق عزاز"، ومنهم جبران الذي راح يُراسله ويُلحّ عليه في الإسراع بالعودة للمساعدة في إعادة "الفنون" إلى الحياة. فما كان منه إلّا أن عاد، وليس لديه "ايّ خطّة لأيّ عمل" يرتزق منه.

العمل في التجارة

في نيويورك، وهذه المرّة، دخل نعيمه "دنيا التجارة" وهو "كالأطرش في الزفّة". والعمل التجاريّ الجديد الذي كان عليه القيام به هو الترويج لـ"قمصان نوم للسيّدات، وفساطين للصغار من سنّ ستّة أشهر حتّى السنتين". وهذه التجارة كانت لثلاثة إخوة "من اللبنانيّين يعملون في حقل الاستيراد والتصدير من جزر الفيلبّين وإليها". والذي سعى له بهذا العمل هو "الدكتور أيّوب ثابت الذي، بعد سنين، اختاره الفرنسيّون رئيسًا لدولة لبنان في فترة حَرِجَة أوشك الحُكم فيها في أن ينتقل من الفرنسيّين إلى الوطنيّين". في البداية، كان نعيمه يجهل كلّ شيء عن هذه التجارة. لكنّه، وبعد انقضاء فترة تقلّ عن الشهر، بات يعرف عنها كلّ شيء، ويعرف كيف يروّج لها "في نيويورك وغيرها من المدن القريبة والبعيدة". ولطالما قصد المخازن الكبيرة، "وحقيبة النماذج (المساطر، العيّنات)" في يده. ولهذا السبب خاطبه جبران في إحدى رسائله إليه بقوله: "كلّما فكّرْتُ بك متجوّلًا في "الداخليّة" كممثّل لبيت تجاريّ شعرْتُ بنوع من الألم. غير أنّ هذا الألم هو من بقايا الفلسفة القديمة. فأنا اليوم أؤمن بالحياة وبكلّ ما تجلبه الحياة [...]". وفي رسالة ثانية قال له: "[...] أيّها التائه بين منازع الأرض ومرامي السماء. وبعدُ فقد سمعْتُ صوتك مناديًا على بضاعتك في الأسواق والساحات– يا الله عالخام– يا الله عالشيت والعنبر كيس– ولقد استحسنْتُ نغمة صوتك يا ميشا. وأنا أعلم أنّ الملائكة تسمعك وتدوّن مناداتك في الكتاب الأبديّ".

استمرّ عمل نعيمه في هذه التجارة مدّة خمس سنوات[١]، وكان يحصل على مبلغ نقديّ لا "يتجاوز مئة دولار في الشهر على مدى سنتين، ولم يبلغ الثلاثمائة إلّا في السنة الرابعة". وبعد أن باشر عمله سعى لتأمين مسكن له يتناسب ودخله، فاكترى منزلًا ببدل قدره "ستّة دولارات في الأسبوع"، وهو عبارة عن "غرفة في أعالي جزيرة مانهاتن [...] ضيّقة ومظلمة [...تقع] في الدور الرابع من وكالة كثيرة الأدوار". وهذه الغرفة كانت لسيّدة تقيم وزوجها في هذا البيت، ولا أولاد لهما[٢]. وستنشأ، بينه وبين هذه السيّدة التي بدت له في نحو الثلاثين، والتي يدعوها "بيلّا" وهو غير اسمها الحقيقيّ، علاقة غراميّة دامت خمس سنوات، وكانت الحافز له على نظم عدّة قصائد من تلك المدرَجَة في **همس الجفون**، وأوّلها "آفاق القلب"، ومنها أيضًا "حبل التمنّي"، و"إلى .M.D.B"، و"ترنيمة الرياح"، وغيرها[٣].

رابطة ١٩٢٠ القلميّة

كان قد تحلّق، في نيويورك، رهطٌ من الأدباء الشباب تجمعهم أهداف واحدة تتعلّق بتجديد الأدب العربيّ، والثورة على ما فيه من جمود وتقليد. وكان هؤلاء الأدباء الشباب ينشرون نتاجهم الجديد في مجلّة "الفنون" أوّلًا، ثمّ في جريدة "السائح" بعد احتجاب الأُولى عن الصدور. ولم تلبث أن غدت هذه الجريدة النصف أسبوعيّة "بوقهم"، وغدت إدارتها ملتقاهم[٤]. وبعد فترة تألّفت منهم الرابطة القلميّة، في العشرين من نيسان عام ١٩٢٠، خلال ليلة أحياها صاحب السائح (عبد المسيح حدّاد) في بيته، ودار الحديث فيها حول ما يمكن لأدباء المهجر القيام به "لانتشال الأدب العربيّ من وهدة الخمول والتقليد" بحيث يغدو ذا أثر فعّال في حياة الأمّة. وقرّ الرأي على الانتظام في "رابطة تضمّ قواهم وتوحّد مسعاهم" في سبيل تحقيق أهدافهم. وفي الثامن والعشرين من الشهر ذاته اجتمع في منزل جبران الأدباء: عبد المسيح حدّاد، ندره حدّاد، الياس عطاالله، وليم كاتسفليس، نسيب عريضه، رشيد أيّوب، جبران خليل جبران، ميخائيل نعيمه، وأقرّوا إنشاء جمعيّة تُدعى "الرابطة القلميّة"، ويكون رئيسها (العميد) جبران، وكاتم سرّها (المستشار) نعيمه، وأمين صندوقها (الخازن) كاتسفليس؛ و"أن يكون أعضاؤها ثلاث طبقات: عاملِين ويُدعَون "عمّالًا". فمناصرِين ويُدعَون "أنصارًا". فمراسلِين". وكَلَّف الحاضرون نعيمه تنظيم قانون للجمعيّة، فنظّمه ووضع له مقدّمة. ورسم جبران للرابطة شعارًا جميلًا، و"أخذَتْ كتابات عمّالها تظهر في "السائح" وتحت عنوان كلّ مقال أو قصيدة اسم صاحبها متبوعًا بهذه الكلمات: "العامل في الرابطة القلميّة" ". ثمّ انضمّ إلى "الرابطة" عضوان آخران هما: رشيد أيّوب، وإيليّا أبو ماضي، فأصبحوا بذلك عشرة: سبعة من لبنان، وثلاثة من حمص هم: نسيب عريضة، وندره حدّاد، وعبد المسيح حدّاد. أمّا توزُّعهم الطائفيّ فكان على النحو التالي: ثمانية من الروم الأرثوذكس، واثنان مارونيّان هما جبران

---

[١] نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الثانية**، مرجع سابق، ص ١٥٣. وقد ترك نعيمه عمله هذا أواخر آذار ١٩٢٥ (المرجع نفسه، ص ٢٥٩). وفي السنوات الثلاث التي تَلَت ولج "أبوابًا للرزق لم تكن تخطر [له] في بال". وللمزيد حول هذه الأعمال التي ولجها يُراجَع: نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الثانية**، ص ٢٥٩- ٢٦٢.

[٢] نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الثانية**، مرجع سابق، ص ١٥٣- ١٥٤. ويدعو نعيمه هذا الغرفة بـ"الوكر".

[٣] المرجع نفسه، ص ١٦٥- ١٦٦، ١٦٨- ١٧٠، وجميعها منشور في **همس الجفون**. وللمزيد حول علاقته بهذه المرأة، كيف نشأت، وكيف تطوّرت، وكيف انتهت، يُراجَع: نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الثانية**، ص ١٦١- ١٧٢، ١٩٩- ٢٠٤، ٢٤٣- ٢٥٠. وحول علاقات نعيمه العاطفيّة الأخرى يُراجَع الفصلان: "نيونيا" و"هيلدا" من كتابه **سبعون، المرحلة الثانية**، ص ٣١٠- ٣١٧، ٣٢٥- ٣٣٠.

[٤] نعيمه، ميخائيل، **المجموعة الكاملة، المجلّد الثالث، جبران خليل جبران**، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٩، ص ١٨٥. يُراجَع أيضًا: نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الثانية**، مرجع سابق، ص ١٧٣.

وباحوط[١]. أمّا أمين الرَّيحاني "فلم [يضمّوه] إلى الرابطة لسببين: أوّلهما أنّه كان متغيّبًا عن نيويورك عند تأسيسها. وثانيهما- وهو الأهمّ- أنّه كان على خلاف بلغ حدّ الجفاء مع جبران"[٢].

رابطتان قلميّتان

إنّ ما أورده نعيمه حول تاريخ نشأة الرابطة، والأعضاء المنتسبين إليها، والسببَين اللذين تسبّبا بعدم "ضمّ" الرّيحاني إلى أعضائها العاملِين، يدفعنا إلى سَوْقِ توضيح نراه واجبًا، لاسيّما بعد صدور كتب ودراسات عديدة، أواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحالي، أضافت معلومات جديدة لم تكن متوافرة للدارسين من قبل. هذه المعلومات الجديدة التي كشفها الباحث الأميركيّ ألان ريتشارد بوب، وباحثين آخرين، استند إليها د. أمين ألبرت الرَّيحاني ليؤكّد أنّ الرابطة القلميّة التي أُعلنت "رسميًّا في ٢٨ نيسان/ أبريل ١٩٢٠، كانت مُعلَنة عفويًّا منذ العام ١٩١٦ على صفحات مجلّة الفنون"، وكان أكثر "أعضائها ينشرون في تلك المجلّة ويوقّعون أسماءهم مُلحَقةً بعبارة "عضو الرابطة القلميّة"". ومن بين هؤلاء أمين الرَّيحاني الذي نشر "في الجزء الثاني من السنة الثانية من الفنون، عدد تمّوز/ يوليو ١٩١٦"، مقالًا موقَّعًا باسمه، ومُلحَقًا بعبارة "عضو الرابطة القلميّة". ويضيف د. الرَّيحاني إلى ذلك قوله "إنّ جماعة "الرابطة"، زمن الفنون، قد توزّعوا إلى مجموعتين ثقافيّتين: واحدة متأثّرة بالآداب الأوروبيّة والروسيّة، وهي بزعامة جبران ومناصَرة نسيب عريضة وميخائيل نعيمه [...]؛ وأخرى متأثّرة بالآداب الأميركيّة، وهي بزعامة الرَّيحاني، ومناصَرة الشيخ سليم يوسف الخازن وحنّا خبّاز وفيليب الخولي وحنّا عبدالله نصر والياس صبّاغ وسواهم". وهذا الواقع حول الزعامتين الأدبيّتين دفع د. الرَّيحاني إلى التساؤل حول صحّة الفرضيّة القائلة "بأنّ الرابطة القلميّة مرّت بمرحلتين: رابطة "أُولى" على صفحات مجلّة الفنون بين ١٩١٣ و١٩١٨، بزعامة كلّ من الرَّيحاني وجبران، كما يقول "بوب"، ورابطة "ثانية" عام ١٩٢٠ بزعامة جبران وحده؟". ثمّ لا يلبث أن يؤكّد صحّة هذا التساؤل استنادًا إلى كتاب **الصحافة المهجريّة وعلاقتها بالأدب المهجريّ** للدكتور هنري مِلْكي الصادر عام ١٩٩٨، والذي يؤكّد بدوره أنّ الرَّيحاني هو رئيس الرابطة، وأنّ "هذا هو السبب الذي منعه من الانضمام إلى الرابطة الثانية التي ترأّسها جبران ..."[٣].

عَوْدٌ إلى رابطة ١٩٢٠ القلميّة

بعد هذا التوضيح حول الرابطة القلميّة، ونشأتها، ودور الرَّيحاني فيها؛ نعود إلى موضوعنا الأساسيّ فنذكر أنّه كان من جملة أهداف رابطة ١٩٢٠ القلميّة الاهتمام "بنشر مؤلّفات عمّالها ومؤلّفات سواهم من كتّاب العرب المستحقّين، وبترجمة المؤلّفات المهمّة من الآداب الأجنبيّة"، هذا فضلًا عن منح جوائز ماليّة تشجيعًا للأدباء. لكنّها لم تستطع، لضآلة الموارد الماليّة، إلّا أن تنشر كتابًا واحدًا هو **مجموعة الرابطة القلميّة لسنة ١٩٢١**، ولم تحاول نشر مجموعة أخرى بعد ذلك[٤]. أمّا الأهداف الباقية فلم تستطع أن تحقّق منها شيئًا.

---

[١] نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الثانية**، مرجع سابق، ص ١٧٣، ١٧٦. وعلى الصفحة ١٧٣ يُورِد نعيمه أسماء الأعضاء العشرة، "مُرَتَّبين حسب السنّ". وعلى الصفحات ١٧٧- ١٨٣، يعطي "لمحة خاطفة" عن كلّ منهم، مبتدئًا برشيد أيّوب، ومختتِمًا بعبد المسيح حدّاد.

[٢] نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الثانية**، مرجع سابق، ص ١٧٣- ١٧٤. ويسجّل نعيمه للرَّيحاني، وعلى الرغم من عدم انضمامه إلى الربطة، "فضله على الحركة الأدبيّة المهجريّة في بدء نشأتها". فهو ذو "مزاج ثوريّ. واحتكاكه بالأدب الإنكليزيّ زاد في ثورته على كلّ متحجّر وبالٍ في تقاليد العرب الدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة واللغويّة والأدبيّة" (المرجع نفسه، ص ١٥٩).

[٣] الرَّيحاني، أمين ألبرت، **تجاوُزُ الحُطام، رصد نقديّ لملامح الحركة الأدبيّة في الزمن المُوجِع**، الطبعة الأولى، بيروت، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، ٢٠١٣، ص ٢٠٩- ٢١٠. وحول المراجع التي يستند إليها د. الرَّيحاني تُراجَع الصفحتان ذاتهما، فضلًا عن الصفحتين ٢١٦- ٢١٧ من المرجع نفسه. وللمزيد حول معالجته موضوع الرابطة القلميّة يُراجَع: "الرابطة القلميّة، ١٩١٦- ١٩٢٠"، و"هل كان الرَّيحاني رئيس الرابطة القلميّة الأولى؟" على الصفحات: ٢٠٩- ٢١٣، ٢١٦- ٢٢٠.

[٤] نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الثانية**، مرجع سابق، ص ١٧٤- ١٧٥. كان ثمن هذه المجموعة دولاران. ولما جرى الاتّصال "ببعض المكتبات في الديار العربيّة لتصريف "المجموعة" كان الجواب أنّ الثمن [...] باهظ جدًّا، ولو أنّه كان نصف دولار لابتاعت مكتبة القاهرة ١٠٠ نسخة" (المرجع نفسه، ص ١٧٥).

الغربال

ما إنْ بدأت كتابات أدباء الرابطة القلميّة بالظهور على صفحات "الفنون"، ومن بعدها "السائح"، حتّى بدأت تلقى الاستحسان في الأوساط الأدبيّة في المهجر، وفي البلدان المشرقيّة. ومن جملة مَن استهواهم هذا الأدب، في مصر، محيي الدين رضا الذي بادر إلى نشر مجموعة من كتابات هؤلاء الأدباء أسماها **بلاغة العرب في القرن العشرين**. صدرت هذه المجموعة في القاهرة، واستُقبلَت بحفاوة من قِبَل الجيل الجديد. وما لبث محيي الدين رضا، ناشر هذه المجموعة، أن كتب إلى نعيمه، في حزيران ١٩٢٢، مُبديًا استعداده لنشر كتاب خاصّ له ليكون "نموذجًا لمن يحبّون السير على الأساليب الحديثة". هذه الرسالة كانت الدافع الذي استحثّ نعيمه على نشر **الغربال**. فراح يجمع مقالاته النقديّة التي نشرها منذ سنة ١٩١٣ وحتّى ذلك التاريخ، ووضَع لها هذا العنوان. وصدرت الطبعة الأولى من الكتاب في القاهرة صيف ١٩٢٣، ووضع مقدّمته عبّاس محمود العقّاد. ولم يكن الناشر محيي الدين رضا، بل الياس أنطون الياس صاحب "المطبعة العصريّة". أمّا نصيب نعيمه منه فكان أربعمائة نسخة أرسلها الناشر إليه في نيويورك[١].

"رأى جبران خليل جبران في هذا الكتاب أوّل نسمة خير تهبّ على الأدب فتنعشه. وشجّعت أصداء الاستحسان التي لقيها "الغربال" نعيمه على مواصلة رسالته الأدبيّة بثقة، فراح يهيّئ تصاميم كتبه المقبلة"[٢]، وكان يكتب باستمرار، وتنشر له "السائح" كتاباته. وممّا نشرته له في عددها السنويّ الممتاز أقصوصة "ساعة الكوكو"[٣].

صيف في العزلة

كان نمط الحياة في نيويورك يضغط على نعيمه بأثقاله، فيعاوده الحنين إلى أجواء العزلة. وتحت وطأة أثقال الحياة في هذه المدينة، وموجات الحنين التي كانت تنتابه، عاوَدَتْه "الأفكار والتخيّلات التي [دفعته] قبل سنتين [أي عام ١٩٢٦] على نظم [قصيدته] "الآن""، وهي آخر ما نظمه بالعربيّة، فصمّم "في أوائل أيّار من العام ١٩٢٨ على السفر إلى والا والا"[٤]. ومن منجزات نعيمه في هذه الفترة، وقبل مغادرته نيويورك "بأكثر من شهر"، أنّه أرسل إلى جريدة "التايمز" النيويوركيّة قصيدته الأولى التي نظمها بالإنكليزيّة وعنوانها "السباق الذي لا ينتهي"، فنشرتها، كما العادة التي درجَت عليها، على الصفحة المُخصَّصة لقلم التحرير يوم الأحد في الرابع عشر من آذار عام ١٩٢٨، وبعد يومين جاءته "حوالة من "التايمز" بعشرة دولارات". وفي العزلة التي قضاها في "والا والا"، وفي مصيف شقيقه أديب في الجبال والذي يبعد عنها حوالي خمسين ميلًا، نظم عددًا من القصائد بالإنكليزيّة، منها "الشِّرار"، وقد أوحَتْها إليه نار أَوقدَها في الليل خارج الكوخ في مصيف شقيقه، وراح يرقب "رقصة الشِّرار المتصاعد منها" والتي تراءت له وكأنّها "أرواح سجينة في ذلك الحطب وقد أطلقَتْها النار من سجنها"[٥].

---

[١] المرجع نفسه، ص ٢١١. وفي تقييم متأخّر للكتاب نظر نعيمه إليه على أنّه "نقطة انطلاق في [حياته] الأدبيّة وفي ما تواضَع القوم على تسميته "النهضة الأدبيّة" (المرجع نفسه، ص ٢١٣).

[٢] جبر، جميل، **ميخائيل نعيمه في سيرته وأدبه**، مرجع سابق، ص ١٩.

[٣] نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الثانية**، ص ٢٥٨. و"ساعة الكوكو" أعاد نشرها في مجموعة أقاصيصه **كان ما كان** التي صدرت للمرّة الأولى عام ١٩٢٧، والمعاد نشرها في **المجموعة الكاملة، المجلّد الثاني**، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٩، ص ٢٩٩– ٣٢٢.

[٤] المرجع نفسه، ص ٢٦٢– ٢٦٥، والقصيدة منشورة في مجموعته الشعريّة **همس الجفون** التي طُبعت للمرّة الأولى عام ١٩٤٥، والمعاد نشرها في **المجموعة الكاملة، المجلّد الرابع**، الطبعة الثانية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٩، ص ١٠٠– ١٠١.

[٥] نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الثانية**، مرجع سابق، ص ٢٦٦– ٢٦٧، ٢٧٢. وقصيدة "السباق" ترجمها نعيمه لاحقًا إلى العربيّة نثرًا، ونشرها في **همس الجفون** الذي صدر للمرّة الأولى عام ١٩٤٥، والمُعاد نشره في **المجموعة الكاملة، المجلّد الرابع**، مرجع سابق، والقصيدة منشورة على الصفحتَين ١١٣– ١١٤منه. ونشير إلى أنّ نديم نعيمه يذكر أنّ أُولى قصائد نعيمه بالإنكليزيّة هي قصيدة "الجوع Hunger" (نعيمه، نديم، **ميخائيل نعيمه طريق الذات إلى الذات**، مرجع سابق، ص ٧٢)، والمنشورة، بترجمتها العربيّة نثرًا، في **المجموعة الكاملة، المجلّد الرابع**، ص ١٣٤. وقصيدة "الشرار" ترجمها نعيمه أيضًا إلى العربيّة نثرًا، وهي منشورة في المرجع نفسه، ص ١١٧– ١١٩.

نيويورك للمرّة الأخيرة

لم يَكَدْ صيف ذاك العام ينتهي حتّى انتهت معه عزلة نعيمه في "والا والا"، وفي مصيف شقيقه أديب، وعاد في أواخره إلى نيويورك. ومع عودته هذه واجه المشكلة عينها التي واجهها مرّات من قبل، وهي مشكلة العمل والمعيشة. وَوُفّق أخيرًا في إيجاد عمل، وهو "إدارة فرع المطرّزات الفيلبينيّة" في متجر يمتلكه تاجر من أبناء الجالية، لقاء مُرتَّب يبلغ خمسة وستين دولارًا في الأسبوع. وإلى جانب عمله استمرّ في نشاطه الأدبيّ. لكنّ "فكرة العودة إلى الوطن أخذت" تُلِحّ عليه أكثر فأكثر، وكانت عوامل عديدة تتضافر وتدفع به في اتّجاهها، ومنها عدم صدور "السائح" السنويّ مطلع العام ١٩٣١، وارتحال عميد الرابطة جبران خليل جبران عنها بعد انقضاء "ثلاثة شهور وعشرة أيّام من العام الجديد". أضف إلى ذلك أنّ أخاه نسيب، الذي كان يتابع اختصاصه في الهندسة الزراعيّة في إحدى الجامعات الفرنسيّة، "يوشك أن ينال شهادته من الجامعة"، ومصمّم على العودة إلى الوطن، وبنيله شهادته وعودته يرتفع عن نعيمه عبء القيام بنفقاته، ويصبح قادرًا على إعانة والدَيه لاسيّما إذا عمل في حقل اختصاصه. هذا فضلًا عن أنّ صاحب المتجر الذي كان يعمل فيه "يشكو الخسارة من جرّاء الضائقة الماليّة المستحكِمة في البلاد، وها هو صديقه "ميخائيل اسكندر الذي كان يعمل له في الشرق الأقصى [...] قرّر الاستقالة من عمله والعودة إلى نيويورك ليعود منها إلى الوطن". وهكذا فقد بدا لنعيمه أنّ كلّ المؤشرات كانت "تؤذِن بانتهاء مرحلة من مراحل" عمره، فبادر إلى حجز غرفة "على ظهر باخرة أميركيّة تُبْحِر من نيويورك إلى بيروت في التاسع عشر من نيسان سنة ١٩٣٢". غادر أميركا بعد أن أمضى فيها عشرين عامًا من عمره. غادرها وهو لا يحمل في جيبه غير خمسمائة دولار من غناها الفاحش، لكنّه يحمل في كيانه الإنسانيّ "خبرة مادّيّة وروحيّة لا تُثمَّن بمال".

في لبنان

استغرقت سفرة نعيمه، ما بين نيويورك وبيروت، عشرين يومًا قضاها في البحر. وفجر التاسع من أيّار عام ١٩٣٢ كان في مينا بيروت. ونحو العاشرة مساءً كان في بسكنتا، في منزل خاله حيث كان يقطن، في الدور العلويّ منه، شقيقه نسيب وزوجته الفرنسيّة "سوزان". وفي الصباح ذهب إلى البيت الذي يقيم فيه والداه مع شقيقه الآخر نجيب وعائلته، وهو غير البيت الذي وُلِد فيه، ويبعد عنه نحوًا من مائة متر، وأغنى من القديم بكثير، لكنّ سقفه من التراب كأكثر بيوت "الضيعة"[١]. وفي النهار صعد إلى الشخروب وأمضى نهاره هناك، مستعيدًا ذكريات الماضي، ومستطلِعًا آفاق المستقبل. وكان أوّل ما عزم على فعله تجديد الجنينة في الشخروب، وغرس أشجار الفاكهة بدل التوت في البستان الذي يملكونه في الضيعة لإراحة والدته "من تربية دود القزّ المُضنِكة".

حفلتان تكريميّتان

بعد عودته بأسبوعين أُقيمت له حفلة تكريميّة في البهو الكبير من المدرسة الروسيّة حيث نال تعليمه الابتدائيّ، وفي مستهلّها خاطبَ أبناء بلدته قائلًا: "يا أبناء بسكنتا– يا لحمي ويا دمي. منذ عشرين سنة أدرْتُ وجهي إلى البحر وظهري إلى صنّين. واليوم صنّين أمامي والبحر ورائي. وأنا بين الاثنين وكأنّني في عالَم جديد، وكأنّي وُلِدْت ولادة ثانية"[٢]. وبعدها بأيّام أُقيمت له حفلة تكريميّة ثانية في مسرح "الأمبير" ببيروت بدعوة من "جمعيّة التضامن الأدبيّ". وفي الخطبة التي ألقاها فيها نقل إلى السامعين بعضًا من شعوره "بإفلاس المدنيّة

---

[١] المرجع نفسه، ص ٣١. وقد كان يعيش في هذا البيت تسعة أشخاص هم: شقيقه نجيب وزوجته وأولادهما الثلاثة، ونسيب وزوجته الفرنسيّة، ووالده ووالدته. وبانضمام نعيمه إليهم صاروا عشرة. وبعد وفاة نسيب وارتحال زوجته سوزان إلى أهلها في فرنسا أصبحوا ثمانية. ثمّ ما لبثوا أن صاروا سبعة بعد وفاة الوالد عام ١٩٣٧. ولقد قام نعيمه ببناء بيت جديد مكانه، وانتقلت العائلة المؤلّفة من سبعة أشخاص للعيش فيه: هو ووالدته، وشقيقه نجيب وزوجته زكيّة، وأولادهما الثلاثة: مي ويوسف ونديم (المرجع نفسه، ص ١٨٣). لكنّهم، وبعد رحيل الوالدة، أصبحوا ستّة. وللمزيد حول البيت الذي بناه نعيمه، يُراجَع: المرجع نفسه، ص ١٤٠– ١٤٦.

[٢] نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الثالثة**، مرجع سابق، ص ٣٧– ٣٨. والخطبة منشورة في **المجموعة الكاملة، المجلّد الخامس، زاد المعاد**، الطبعة الثانية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٩، ص ١٣٦– ١٤١ تحت عنوان، صنّين والدولار.

الغربيّة"، وبعضًا من إيمانه "بحيويّة الرسالة التي حملها الشرق إلى العالَم بلسان معلّميه وأصفيائه"، وبعضًا من نشوته "بفتنة الجمال والسلام المحَيّمَين في جبال لبنان". وفي الخطبتَين هاتَين، وفي جميع الكلمات التي ألقاها من بعدُ في جميع المناسبات، في الأندية والمعاهد، في لبنان وسوريا وفلسطين، يؤكّد نعيمه أنّه حدّث الناس بما يفيض به قلبه ولسانه، وأنّه لم يتصنّع، ولم يُمالئ، ولم يتوجّه إلى السامعين مرّة بنداء: "سيّداتي، سادتي"[1]. وبعد خطبتَيه في هاتين الحفلتين، ألقى خطبًا كثيرة في أمكنة أخرى، ومناسبات أخرى، وأكثرها منشور في **زاد المَعاد**[2].

ناسك الشخروب

"ناسك الشخروب" هو اللقب الذي أطلقه عليه توفيق يوسف عوّاد. وقد زاره توفيق عصر يوم من أيّام الصيف الأوّل الذي أمضاه نعيمه في الشخروب. وكانت حصيلة الزيارة "ريبورتاجًا" طويلًا كتبه "الزائر"، ونشره على حلقات في أكثر من عدد من صحيفة "البرق" لصاحبها الأخطل الصغير، بشارة عبدالله الخوري. وقد توّج الكاتب عوّاد تحقيقه بهذا العنوان، فلاقى رواجًا كبيرًا، بحيث بات من النادر أن يُكتَب عن نعيمه، أو يُتحدّث عنه، إلّا ويُقْرَنُ باسمه الحقيقيّ.

المراحل

وكان نعيمه، منذ عودته الأخيرة إلى لبنان، قد عاهد نفسه على ألّا يمتهن مهنة أخرى غير الكتابة، وأن يكفي نفسه، ويساعد عائلته، من شقّ قلمه. فما عاناه جرّاء ذلك في الولايات المتّحدة الأميركيّة قد كفاه، وعلّمه كم يصرفه ذلك عن التأمّل والتفكير والكتابة. وما أشقّ ذلك في لبنان وأصعبه! لكنّه مشى على هذا الطريق بثبات، وتمكّن من بلوغ غايته في النهاية بعد معاناة طويلة ومريرة. وأولى مبادراته، على هذا الصعيد، كانت عودته إلى أوراقه القديمة، واختياره منها غير ما نشره في **الغربال**. وهكذا توفّرت له مجموعة مقالات، وصمّم على نشرها في كتاب. فاختار لها عنوان **المراحل**، وأرفقه بعنوان فرعيّ تفسيريّ: "**سياحات في ظواهر الحياة وبواطنها**"، وبادر عام ١٩٣٢ إلى نشره على نفقته الخاصّة. بلغت تكاليف ألفَي نسخة منه مئتَي ليرة لبنانيّة، وجعل ثمن النسخة الواحدة خمسة وسبعين قرشًا بالعملة اللبنانيّة– السوريّة، وأعطى المكتبات حسمًا قدره خمسة وعشرين بالمئة. لكن، وعلى الرغم من ذلك، فقد عانى في تصريف نسخه التي تمكّن من تصريفها الأمرَّين.

زيارة ضريح جبران

وفي صيف ذاك العام، ١٩٣٢، قصد بشرّي برفقة الشاعر أمين مُشْرِق لزيارة ضريح جبران. لكنّهما زارا غابة الأرز أوّلًا، ومن بعدها هبطا إلى مار سركيس حيث يرقد جبران. وفي طريقه من غابة الأرز إليه، جمع عن جوانب الطريق طاقة من الأزهار البرّيّة، وقدّمها لدى وصوله إلى جبران في لحده[3].

---

[1] المرجع نفسه، ص ٤٠– ٤١. والخطبة منشورة في كتاب **زاد المَعاد**، الصادر في طبعته الأولى في مصر عام ١٩٣٦، والمعاد نشره في **المجموعة الكاملة، المجلّد الخامس**، مرجع سابق، ص ١٤٢– ١٤٨ تحت عنوان: مدنيّة الأزمات والآلات.

[2] من هذه الخُطَب نذكر "الخيال" التي ألقاها بالإكليزيّة في ٢١ شباط ١٩٣٢ في الجامعة الأميركيّة، والتي ترجمها إلى العربيّة، والمنشورة في المجلّد الخامس من **المجموعة الكاملة**، مرجع سابق، ص ١١٩– ١٢٨؛ وخطبة "الأبواق المحطَّمة" المُلْقاة في حفلة "تهذيب الشبيبة" في بيروت في ٢٩ نيسان ١٩٣٣، والمنشورة في المرجع نفسه، ص ١٢٩– ١٣٥؛ وغيرهما.

[3] المرجع نفسه، ص ٦٩– ٧٠. وكان جثمان جبران قد وصل إلى بيروت في ٢١ آب سنة ١٩٣١، ومنها نُقل إلى دير مار سركيس في بشرّي، الخلوة التي كان جبران يمّي النفس بها (نعيمه، ميخائيل، **المجموعة الكاملة، المجلّد الثالث، جبران خليل جبران**، مرجع سابق، ص ٢٨٩). وعن رغبة جبران وتخطيطه للعودة إلى بشرّي، والإقامة في مار سركيس، يُراجَع: نعيمه، ميخائيل، **المجموعة الكاملة، المجلّد الثالث، جبران خليل جبران**، مرجع سابق، ص٢٢٣– ٢٢٥. وأمين مُشْرِق (١٨٩٨– ١٩٣٤) شاعر لبنانيّ وُلِدَ في غرزوز، وهاجر إلى نيويورك، ومنها إلى عاصمة الإكوادرو في أميركا الجنوبيّة. (**سبعون، المرحلة الثالثة**، مرجع سابق، ص ٦٩. يُراجَع أيضًا: **المنجد في الأعلام**، مرجع سابق، ص ٥٣٤).

فُلْك نوح

في ١٥ أيّار عام ١٩٣٣ توفّي شقيقه الأصغر نسيب بعد معاناة طويلة مع المرض. وفي صيف العام نفسه، انتقلت العائلة إلى الشخروب، جريًا على عادتها في كلّ صيف. وراح نعيمه يفتّش عن خلوة يتوفّر فيها الهدوء التامّ، فعثر عليها في بقعة صخريّة تبعد عن الشخروب قرابة الكيلومتر، وهي عبارة عن "صخرة عاتية، شامخة، تشبه من إحدى جهاتها سفينة في بحر". وفي تجويف تلك الصخرة التي دعاها "الفُلْك"، تشبيهًا لها بِفُلْك نوح، والبالغ اربعة أذرع طولًا، وثلاثة عرضًا، وعشرة عُلوًّا، كان يمضي ساعات طوالًا، كلّ يوم من أيّام الصيف، في التأمّل والكتابة، ويستقبل الزوّار الوافدين إليه "من جميع الأقطار العربيّة وغير العربيّة. وفي "الفُلْك" وضع الكثير من مقالاته وكتبه، ومنها **جبران خليل جبران**، و**البيادر**، و**مرداد**.

في العام ١٩٣٤ صدر في بيروت كتابه **جبران خليل جبران، حياته، موته، أدبه، فنّه**. وفور صدوره ثارت ضجّة حوله، إذ رأى البعض فيه "حطًّا متعمَّدًا من منزلة جبران الأدبيّة لترجح" كفّة المؤلِف على كفة جبران، ورأى فيه آخرون أنّه يصوّر جبرانًا غير جبران الحقيقيّ[١]. وفي العام ١٩٣٦ صدر له في مصر، عن دار المُقتطَف والمقطّم، مجموعة من الخطب كان ألقاها في مناسبات مختلفة في لبنان وسوريا وفلسطين تحت عنوان **زاد المَعاد**، وكان نصيبه منه ثلاثمائة نسخة[٢].

في صيف ١٩٣٧، في التاسع عشر من شهر تمّوز، توفّي "بو ديب"، والد نعيمه، عن ثلاثة وثمانين عامًا. وفي هذه الأثناء، وقبلها بقليل، راح نعيمه يجمع بعضًا من الأقاصيص التي كان قد كتبها في المهجر، ونشرتها متفرّقة بعض الصحف والمجلّات هناك، وصدرت في بيروت تحت عنوان **كان ما كان**. وفي العام ١٩٣٩ أخذ نعيمه يفكّر في بناء بيت جديد. فحيث كان يسكن كان بيت خاله، وهو مرهون، وقد اقترب موعد استحقاق الرهن. والبيت حيث كان يسكن أهله لا يتّسع له ولهم، فضلًا عن كونه من الطراز القديم، وسطحه من التراب. وقد كانت له الجرأة على المباشرة بالبناء، على الرغم من "المبلغ الزهيد" الذي كان في حوزته. وحوالي منتصف ربيع ١٩٤٠ شرع العمّال في هدم البيت القديم، وحفر أساسات الجديد. وحوالي منتصف تشرين الثاني انضوت العائلة "تحت سقف البيت الجديد" ذي السقف القرميديّ، والذي بدا كالقصر المنيف قياسًا بالبيت القديم[٣].

"موارد للرزق" جديدة[٤]

بعد عودة نعيمه النهائيّة إلى لبنان، وكانت شهرته قد سبقته إليه، وتوالي حفلات التكريم له، وتواتُر الدعوات إليه ليخطب ويحاضر في الأندية والجمعيّات والملتقيات الثقافيّة، وانصرافه إلى التأليف والنشر؛ انفتحت له "موارد للرزق لم تكن قطّ في الحسبان"، كالإذاعة، والصحف، والمعاهد الثقافيّة، والأندية الأدبيّة، و"التي أخذت تحسّ مسؤوليّاتها تجاه الأدباء [..] فلا تكلّفهم كتابة مقال أو إلقاء خطبة بالمجّان". وهكذا فإنّ الإذاعة "التي افتتحها الفرنسيّون في بيروت إبّان الحرب" راحت تكلّفه إلقاء حديث في الشهر بمكافأة قدرها

---

[١] نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الثالثة**، مرجع سابق، ص ٩٦. وفي كتابه هذا يورد نعيمه نصّ الكتاب المفتوح الذي وجّهه إليه أمين الرَّيحاني على صفحات جريدة "البلاد" التي كانت تصدر حينها في بيروت (ص ٩٧– ١٠٠). وعلى الصفحات التي تليها (١٠٠– ١٠٩) يورد ردّه المُسهَب على الرَّيحاني. ويُشار إلى أنّ الكتاب ترجمه مؤلّفه إلى الإنكليزيّة ونشرته في نيويورك "المكتبة الفلسفيّة" (Philosophical Library) عام ١٩٥٠.

[٢] نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الثالثة**، مرجع سابق، ص ١٥٢. وعن عنوان الكتاب يذكر نعيمه أنّه عرف، بعد عام من صدوره، أنّ ثمّة كتابًا قديمًا "أكبر حجمًا" يحمل عنوان **زاد المَعاد في هَدي خير العِباد**، وأنّه لم يكن قد أبصره ولا سمع به من قبل، ولم يحمله الفضول "على التفتيش عنه والوقوف على ما فيه"، وأنّه خطرَ له بغتة بعد أن كان وضع له نحوًا من عشرين عنوانًا، ولم يَرضَ عن واحدٍ منها (**سبعون، المرحلة الثانية**، مرجع سابق، ص ٦٣.

[٣] المرجع نفسه، ص ١٤٢– ١٤٥. وقد استمرّ في العيش في هذا البيت، بعد وفاة الوالدة عام ١٩٤٤، ستّة "نعيميّين": هو، وشقيقه نجيب وزوجته زكيّة، وأبناءهما الثلاثة: مي، ويوسف، ونديم (المرجع نفسه، ص ١٨٣).

[٤] هذه العبارة : "موارد للرزق"، الموضوعة بين مزدوجين في العنوان أعلاه، هي لنعيمه نفسه، وقد وردت في **سبعون، المرحلة الثالثة**، مرجع سابق، ص ١٥١.

خمسون ليرة لبنانيّة عن الحديث الواحد، ثمّ رفعتها إلى خمسة وسبعين، ثمّ إلى مئة. وبعض المجلّات في بعض البلدان العربيّة كانت تدفع له مبلغ مئتين وثلاثمائة ليرة لبنانيّة عن المقال الواحد. وهناك بلد عربيّ كافأه بمبلغ تجاوز الألفي ليرة عن محاضرتين ألقاهما في واحد من معاهده.

وفي سنة ١٩٤٤ ذهب في رحلة إلى فلسطين، وخطب في مدارس، وأندية أدبيّة، بدعوة من أصحابها. وقد عاد من هذه الرحلة في الحادي عشر من أب من السنة نفسها، وفي جيبه "ألف ومئتا ليرة لبنانيّة". وبعد عودته بثلاثة أيّام، في الرابع عشر منه، توفّيت "أمّ ديب" عن عمر يناهز الخامسة والثمانين، وفي اليوم التالي، وهو "عيد "نياح السيّدة العذراء" [دُفنَت] في المدفن الذي ضمّ من قَبلها بقايا زوجها وبقايا ابنها الحبيب نسيب".

الحرب العالميّة الثانية وأثرها في نتاج نعيمه

قبل أن تندلع معركة ستالينغراد[١] بفترة وجيزة، أذاع نعيمه من الإذاعة "اللبنانيّة في بيروت حديثًا بعنوان: "غدًا تنتهي الحرب""، وقد ضمّنه بعضًا من رؤيته لما ستكون عليه أحوال العالم بعد الحرب العالميّة الثانية. وممّا جاء فيه: "غدًا تضع الحرب أوزارها. فتضيف الإنسانيّة وزرًا جديدًا إلى أوزارها القديمة. وفي مكان ما من بلادٍ ما يجتمع جمهرة من زعماء أمم الأرض [...]." فيضعون معاهدات للسلام، ويصبح للناس "معاهدات سلم ولا سلم" ينعمون به. ولقد كان للحرب العالميّة الثانية، منذ اندلاعها وحتّى بعد انتهائها، أثرًا كبيرًا في نتاجه. ومقالاته المنشورة في **البيادر**، و**صوت العالَم**، و**النور والديجور**، و**في مهبّ الريح**، "خير شاهد على ذلك". ويعلّل نعيمه ذلك بقوله إنّه كان يتحتّم عليه التوفيق بين نظرته "إلى الإنسان كبذار إلهيّ ينمو ويتطوّر نحو الكمال الربّانيّ، وبين البشاعات والجرائم التي يرتكبها في هذه الفترة من نموّه وتطوّره"[٢].

همس الجفون ومؤلّفات أخرى

ابتداءً من العام ١٩٤٥ أخذت دار صادر تنشر كُتب نعيمه بانتظام. وبات نصيبه منها يُدَفع له على أساس مئويّ "حال نزول الكتاب إلى السوق". والكتاب الأوّل الذي نشرته له هو مجموعته الشعريّة **همس الجفون**، وتضمّ قصائد كتبها بالعربيّة، وأخرى كتبها بالإنكليزيّة وترجمها إلى العربيّة، فضلًا عن "النهر المتجمّد" التي كتبها بالروسيّة عندما كان طالبًا في روسيا، وترجمها بتصرّف إلى العربيّة في وقت لاحق. وهذه القصائد سبقَ ونشرَ الكثير منها في الصحف والمجلّات، في المهجر وفي البلدان العربيّة. وامتدّت علاقاته إلى مصر، وصدر له هناك، في العام ذاته، **البيادر**، "وهو مجموعة محاضرات وإذاعيّات ومقالات كانت قد ظهرت متفرّقة منذ ١٩٤٠"[٣].

وتوالى صدور الكتب لنعيمه، في بيروت وفي القاهرة. ففي العام ١٩٤٦ صدر له في الأولى **الأوثان** "وهو كتيّب يبحث في بعض مقوّمات المدنيّة الحديثة كالمال والسلطان والعلم وغيرها التي غدت في أعين الناس بمثابة معبودات في حين أنّها في حقيقتها أصنام"، وفي الثانية– عن دار المعارف– **كرم على درب**، "وهو مجموعة شذرات وحِكَم"[٤]. وبعد عامَين، في ١٩٤٨، صدرت له في بيروت، روايته الأسطوريّة

[١] اندلعت معركة ستالينغراد في ٢٣ آب ١٩٤٢ واستمرّت حتّى ٢ شباط ١٩٤٣. ومن أبرز وقائعها الهجوم السوفياتيّ المعاكس الذي شنّه الجيش الأحمر ضدّ الجيوش الألمانيّة المحاصِرة، وكان لانتصار الأوّل فيها التأثير الأهمّ في هزيمة ألمانيا، وتقرير مصير الحرب برمّتها.

[٢] نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الثالثة**، مرجع سابق، ص ١٥٩– ١٦٢. ويُشار إلى أنّ **البيادر** صدر، للمرّة الأولى، عام ١٩٤٥، و**صوت العالم** عام ١٩٤٨، و**النور والديجور** عام ١٩٥٠، وفي **مهبّ الريح** عام ١٩٥٣. أمّا مقال "غدًا تنتهي الحرب" فمنشور في **البيادر**، ويُراجَع في: **المجموعة الكاملة، المجلّد الرابع**، الطبعة الثانية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٩، ص ٦٢٣– ٦٢٨.

[٣] نعيمه، ميخائيل، **سبعون، المرحلة الثالثة**، مرجع سابق، ص ٥٦، حاشية رقم ١، و ص ١٥٢. يُراجَع أيضًا: نعيمه، نديم، **ميخائيل نعيمه طريق الذات إلى الذات**، مرجع سابق، ص ٧٢.

[٤] نعيمه، نديم، **ميخائيل نعيمه طريق الذات إلى الذات**، مرجع سابق، ص ٧٢.

الرمزيّة **لقاء**، و"فيها يجسّد قصصيًّا بعض معتقداته الصوفيّة بما فيها التقمّص"، وفي القاهرة– عن دار المعارف– **صوت العالَم** وهو، على غرار **البيادر**، "مجموعة مقالات وإذاعيّات ومحاضرات ظهرت متفرّقة ابتداءً من سنة ١٩٤٥، تناول في مجملها محنة الإنسان في العالَم المعاصر".

أوّل كتبِ نعيمه الإنكليزيّة

كان نعيمه حتّى هذه الفترة، ما خلا بعض الاستثناءات القليلة جدًّا، "[يـ]عتمد العربيّة وحدها أداة لبثّ ما يجول في خاطر[هـ] من أحاسيس وأفكار". ثمّ خطر له أن يوسّع من دائرة انتشار مؤلّفاته وقرّائه، فبدأ يعتمد الإنكليزيّة، لاسيّما وأنّه يحسنها جيّدًا. وهكذا فقد شرع في وضعِ **مرداد**– ونعيمه يحسبه "القمّة" في تفكيره– في هذه اللغة، ونفض يده من مخطوط الكتاب قبل صيف ١٩٤٧، وأصدره في بيروت عام ١٩٤٨. وفي **سبعون، المرحلة الثالثة**، وفي رسائله إلى مريانا دعبول فاخوري صاحبة مجلّة "المراحل" في سان باولو، يُسهِب المؤلّف في الحديث "عن المخاض" الذي عاناه في وضعه وإصداره، وعن الرموز في "حكاية الكتاب"، وعن الأصداء الإيجابيّة التي قوبِل بها فور صدوره، وترجماته إلى لغات أخرى[١].

مذكّرات الأرقش

لهذا الكتاب سيرة طويلة بدأت فصولها الأولى "في مدينة ريفيّة من مدن بنسلفانيا" عام ١٩١٧. في تلك الفترة كان نعيمه قد غادر نيويورك إلى "بيت لحم"، للالتحاق بعمله الجديد في شركة روسيّة تُصنّع القنابل لمدفعيّة الجيش الروسيّ. وهناك شرع في وضع الفصول الأولى منه، وراح ينشرها على صفحات مجلّة الفنون. لكنّ التحاقه بالجيش الأميركيّ، في الخامس والعشرين من أيّار عام ١٩١٨، بعد إعلان الولايات المتّحدة الحرب على ألمانيا، وإرساله إلى فرنسا، صرفه قسرًا عن متابعة كتابة فصوله. وهذا الانقطاع دام ثلاثين سنة، عاد بعدها إلى إكمالها في لبنان. وصدر الكتاب في بيروت عام ١٩٤٩، ثمّ ترجمه نعيمه إلى الإنكليزيّة، وصدرت الترجمة في نيويورك عام ١٩٥٢.

من أحداث هذه الفترة

هذه الفترة من حياة نعيمه الخاصّة كانت حافلة بالأحداث. ففي الثاني من تمّوز ١٩٥٠ جاءه نعي أخيه هيكل، وكان قد افترق عنه منذ زيارته الأخيرة لمدينة "والا والا" عام ١٩٢٨. وفيها أيضًا قام وعائلته ببعض التحسين في أرض الشخروب. فجلبوا إليه ماء نبعة تبعد عنه مسافة كيلومترين، وبنوا لها خزّانًا يتسع لمئة متر مكعّب من المياه. ورمّموا الكوخ فيه، وأضافوا إليه رواقًا من الجهة الأماميّة. واقتنوا سيّارة راحوا ينتقلون فيها من الضيعة إليه، ومنه إلى الضيعة، عوضًا عن السير على الأقدام، أو امتطاء الدوابّ. وامتدّ خطّ هاتفيّ بين بسكنتا ونبع صنّين، وبات الأمل معقودًا على تجهيزه لكي يصبح قابلًا لمدّ خطوط فرعيّة منه لِمن يودّ الانتفاع من خدمته.

"سبعون" وما قبله وما بعده

في العام ١٩٥٩، وتزامنًا مع بلوغ نعيمه السبعين من سِنيه، صدر له في بيروت الجزء الأوّل من كتابه **سبعون**، وهو يغطّي المرحلة الأولى من حياته، والممتدّة منذ ولادته عام ١٨٨٩، وحتّى رجوعه من پولتاڤا عام ١٩١١. وفي العام التالي صدر الجزءان: الثاني الذي يغطّي المرحلة الثانية من حياته والممتدَّة بين العامين ١٩١١ تاريخ سفره إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة، و١٩٣٢ تاريخ عودته النهائيّة إلى لبنان؛ والثالث الذي يغطّي المرحلة الثالثة الممتدّة حتّى عام ١٩٥٩، تاريخ بلوغه السبعين.

---

[١] يُراجَع، بهذا الشأن، **سبعون، المرحلة الثالثة**، ص ١٩٩– ٢٠٦. ويُراجَع أيضًا: نعيمه، ميخائيل، "رسالة ١٣ كانون الأوّل ١٩٦٠ إلى مريانا دعبول فاخوري صاحبة مجلّة "المراحل" في سان باولو" في **المجموعة الكاملة، المجلّد الثامن، رسائل**، الطبعة الثانية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٠، ص ٣٧٨– ٣٧٩. وفي هذه الرسالة يذكر نعيمه أنّ الاسم "مرداد" وقع "عليه من زمان في أحد الكتب العربيّة القديمة"، وأنّه لا يذكر عنوانه، "على أنّه اسم ملاك"، وأنّ "فيه معنى الردّة أو العودة من حين إلى حين" (ص ٣٧٩).

وقبل **سبعون**، وبعده، أصدرَ نعيمه مجموعة كبيرة من الكتب: **في مهبّ الريح** عام ١٩٥٣، و**دروب** في العام التالي، و**أبعد من موسكو ومن واشنطن** عام ١٩٥٧، و**أبو بطّة** عام ١٩٥٨، و**اليوم الأخير** عام ١٩٦٣، و**هوامش** بعد عامين، و**أيّوب** عام ١٩٦٧، و**يا ابن آدم** بعده بعامين. وعام ١٩٧١ صدر **في الغربال الجديد**، وعام ١٩٧٣ **نجوى الغروب**، و**أحاديث مع الصحافة**، وبعدهما بعام **من وحي المسيح**. وعام ١٩٧٧ **ومضات** المُتَضمّن بعضًا من الشذرات والأمثال.

أمّا مجموعة مؤلّفاته الكاملة فتوالى صدور مجلّداتها التسعة بين العامين ١٩٧٠، تاريخ صدور المجلّد الأوّل، و١٩٧٥، تاريخ صدور التاسع والأخير.

وتخلّل صدور هذه المؤلّفات صدور بعض الترجمات لها إلى لغات مختلفة، وقد أنجز بعضها هو بنفسه، وأخرى أنجزها غيره.

زيارات إلى الخارج

رأينا، في ما سبق، أنّ نعيمه عاد إلى لبنان عام ١٩٣٢، ونضيف هنا أنّ عودته كانت نهائيّة، ولم يغادره بعدها إلّا في مناسبات قليلة، ولفترات وجيزة، "تلبية لدعوات رسميّة لإلقاء محاضرات أو الاشتراك في مؤتمرات"[١]. وذكرنا أيضًا أنّه لبّى دعوة لإلقاء محاضرات في فلسطين عام ١٩٤٤. وأبرز زياراته إلى الخارج كانت تلك التي قام بها إلى الاتّحاد السوفياتيّ في آب عام ١٩٥٦ تلبية لدعوة تلقّاها من "جامعة الكتّاب هناك". وقد جاءت زيارته هذه بعد نصف قرن من زيارته الأولى لروسيا، يوم قصدها للدراسة في سمنار بولتافا، وقد وضع عنها كتابَه **أبعد من موسكو ومن واشنطن**، والذي صدر في بيروت في العام التالي[٢]. وفي عام ١٩٥٧ قام بزيارتين إلى الخارج: في الزيارة الأولى ذهب إلى مصر تلبية لدعوة الحكومة المصريّة. وفي الزيارة الثانية ذهب إلى الكويت تلبية لدعوة حكومتها. وفي كلا الزيارتين ألقى عددًا من المحاضرات. وكان العام ١٩٦٢ حافلًا بالزيارات: ذهب إلى تونس في جولة محاضرات بدعوة من حكومتها، وزار العراق تلبية لدعوة رسميّة من الحكومة العراقيّة، وسافر مجدَّدًا إلى موسكو بدعوة من حكومة الاتّحاد السوفياتيّ للمشاركة في مؤتمر السلام العالميّ، وقد ألقى كلمة في المؤتمر[٣].

أمّا آخر رحلاته إلى الخارج فقد كانت إلى الهند عام ١٩٦٥ للمشاركة في مؤتمر عالميّ حول الدين والمجتمع. وزيارته هذه كانت، بالنسبة إليه، بمثابة حجّ "إلى مصادر نظرته الحلوليّة تأثُّرًا بالفلسفات والعقائد الهنديّة"[٤]، وخلال هذه الزيارة استقبله الرئيس الهنديّ جواهر لآل نهرو.

جوائز وحفلات تقدير

أُقيمت لنعيمه، بعد عودته النهائيّة إلى لبنان عام ١٩٣٢، حفلات تكريميّة عديدة في مراحل متفاوتة من حياته بعد هذه العودة. وقد ذكرنا سابقًا أنّ أُولاها أُقيمت في بسكنتا، في مبنى المدرسة الروسيّة. وقد توالت، بعدها، حفلات تكريمه في لبنان. وما نريد أن نذكره، هنا، مَنْحُه جائزة رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة عام ١٩٦١، وهي جائزة كانت "تُعطى سنويًّا لكاتب لبنانيّ تميّزت آثاره بالعمق والجودة"[٥]. وفي العام ١٩٦٩ منحتْه جامعة واشنطن شهادة الدكتوراه الفخريّة[٦]. وكنّا قد ذكرنا أنّ نعيمه انتسب إلى هذه الجامعة أوائل خريف العام

---

[١] جبر، جميل، **ميخائيل نعيمه في سيرته وأدبه**، مرجع سابق، ص ٢١.

[٢] نعيمه، نديم، **ميخائيل نعيمه طريق الذات إلى الذات**، مرجع سابق، ص ٧٣.

[٣] جبر، جميل، **ميخائيل نعيمه في سيرته وأدبه**، مرجع سابق، ص ٢٢. يُراجَع أيضًا: نعيمه، نديم، **ميخائيل نعيمه طريق الذات إلى الذات**، مرجع سابق، ص ٧٤.

[٤] جبر، جميل، **ميخائيل نعيمه في سيرته وأدبه**، مرجع سابق، ص ٢٢.

[٥] نعيمه، نديم، **ميخائيل نعيمه طريق الذات إلى الذات**، مرجع سابق، ص ٧٤. يُراجَع أيضًا: مَلْحَس، ثريّا، **ميخائيل نعيمه الأديب الصوفيّ**، مرجع سابق، ص ١٩٠.

[٦] نعيمه، نديم، **ميخائيل نعيمه طريق الذات إلى الذات**، مرجع سابق، ص ٧٥.

١٩١٢، وتخرَّج منها عام ١٩١٦ حاملًا إجازتَين: واحدة في الحقوق، وثانية في الآداب. وعام ١٩٧٨، وبناءً على رغبة رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة آنذاك، الرئيس الياس سركيس، قرَّرت الحكومة اللبنانيّة إقامة مهرجان تكريميّ له، تشارِك فيه الدولة اللبنانيّة، "مختلَف الأوساط الأدبيّة والفكريّة والثقافيّة في لبنان والعالَم العربيّ، ويُدعى إليه عدد من كبار الباحثين المستشرقين في العالَم"[١]. وقد أُقيم هذا المهرجان بين السابع والرابع عشر من أيّار من العام ذاته، وبإشراف لجنة تمَّ تشكيلها من قِبَل الحكومة اللبنانيّة، و"رأَسَها يومها وزير التربية الوطنيّة، وكان في عدادها كتّاب وفنّانون وناشطون في مجالات العمل الثقافيّ"[٢]. وقد تخلّل نشاطات المهرجان عرضُ مسرحيّة تتناول سيرة نعيمه الحافلة، كتبها وأخرجها المسرحيّ اللبنانيّ الشهير المخرج يعقوب الشدراوي بتكليف من اللجنة، وتمّ عرضُها على مسرح غولبنكيان، كلّيّة بيروت الجامعيّة للبنات، يومَي ١١ و١٦ أيّار من العام نفسه[٣]. وكان الشدراوي قد قرأ، قبل حفل العرض، بحضور نعيمه ومجموعة الممّثلين الذين سيلعبون أدوار أبطالها، نصّ المسرحيّة الذي أَعدَّه بنفسه[٤]. وأوائل العام ١٩٨٨، وقبل رحيله بفترة زمنيّة قصيرة، مُنح جائزة جواد بولس[٥]. ونشير إلى أنّ نعيمه كان قد وضع، قبل ذلك، مقدّمة كتاب جواد بولس **تاريخ لبنان** الصادر عام ١٩٧٢.

في أصيل حياته

ابتداء من العام ١٩٧٧ ابتدأت قوى نعيمه الجسديّة تخور: أصابت الرجفة يديه ولم يَعُدْ قادرًا على الكتابة إلّا بمقدار، وشحَّ بصره كثيرًا بحيث إنّ حروفًا كثيرة باتت تتعذَّر قراءتها عليه. أمّا قواه الذهنيّة فبقيَتْ على حالها من التوقُّد[٦]. وفي سنيه الأخيرة بدأ "بتأليف كتاب جديد عن التاج والصولجان"، لكنّ ظروفًا اضطرّته للانصراف عنه– ولم يَكُنْ قد كتب غيرَ نُتَفٍ منه– إلى ترجمة **من وحي المسيح** إلى الإنكليزيّة[٧]. وفي الرابعة والتسعين توقَّفَ عن الكتابة بشكل نهائيّ[٨]. ومن آخر ما أملاه على مي، ابنة شقيقه نجيب، وكتبته بخطّ يدها، بعض الشذرات، ومنها قوله في القَدَر: "القَدَر هو ما تُقدّره لنفسك في أعمالك وأقوالك وأفكارك ونيّاتك وشهواتك، في هذه الحياة وفي حيوات سابقة"، وقوله: "نور الحقيقة للنفس كنور الشمس للعينين"[٩]. وفي تشرين الأوّل ١٩٨٦ احتفل بعيد ميلاده السابع والتسعين[١٠].

---

[١] المرجع نفسه، ص ٧٦.

[٢] دكروب، محمّد، "مقدّمة "ميخائيل نعيمة عن الواحد المتعدّد في مسرحيّة الشدراوي" في **ميخائيل نعيمه، مسرحيّة من فصلين ليعقوب الشدراوي**، الطبعة الأولى، بيروت، دار المدى للثقافة والنشر، ٢٠٠٩، ص ٨.

[٣] الشدراوي، يعقوب، **ميخائيل نعيمه، مسرحيّة من فصلين**، الطبعة الأولى، بيروت، دار المدى للثقافة والنشر، ٢٠٠٩، ص ١٥.

[٤] الشدراوي، يعقوب، **ميخائيل نعيمه، مسرحيّة من فصلَين**، مرجع سابق، ص ١٤، ٢١.

[٥] أبو جهجه، خليل ذياب، **الرؤية الكونيّة في أدب ميخائيل نعيمه (محاولة كشف المقولات الفكريّة في رؤية نعيمه إلى الله والكون والإنسان؛ كينونة وعلاقات)**، الطبعة الأولى، بيروت، منشورات اتحاد الكتّاب اللبنانيّين، ٢٠٠٤، ص ٢٣.

[٦] خويّص، منى، "رحل ميخائيل نعيمه، الشمس تحرسه والقمر يؤنس وحدته" في **موسوعة ميخائيل نعيمه الأديب العملاق**، الجزء الأوّل، لجوزيف الخوري طوق، الطبعة الأولى، بيروت، دار نوبليس، ١٩٩٩، ص ٢٠٩. يُراجَع أيضًا: السبعلي، بشارة، **ميخائيل نعيمه يُحدّثني**، الطبعة الأولى، بيروت، [د. ن.]، ١٩٩٨، ص ٨٩.

[٧] صبرا، ماجدة، "شيخ الأدباء ميخائيل نعيمه: قبل الموت أستريح وبعده أستعدّ للولادة" في **موسوعة ميخائيل نعيمه الأديب العملاق**، الجزء الأوّل، مرجع سابق، ص ١٧٧. يُراجَع أيضًا: السبعلي، بشارة، **ميخائيل نعيمه يحدّثني**، مرجع سابق، ص ٨٩.

[٨] شاهين، جان، "ميخائيل نعيمه مع الخالدين" في **موسوعة ميخائيل نعيمه الأديب العملاق**، الجزء الأوّل، مرجع سابق، ص ٢٢٣.

[٩] صبرا، ماجدة، "شيخ الأدباء ميخائيل نعيمه: قبل الموت أستريح وبعده أستعدّ للولادة" في **موسوعة نعيمه ميخائيل الأديب العملاق**، الجزء الأوّل، مرجع سابق، ص ١٧٩– ١٧٧. يُراجَع أيضًا: السبعلي، بشارة، **ميخائيل نعيمه يُحدّثني**، مرجع سابق، ص ٨٩.

[١٠] فاضل، جهاد، "من أحاديث ميخائيل نعيمه الأخيرة" في **موسوعة ميخائيل نعيمه الأديب العملاق** الجزء الأوّل، مرجع سابق، ص ٥٧.

"اليوم الأخير"[١]

وفي الثامن والعشرين من شباط ١٩٨٨، أفاقَ من النوم كعادته عند العاشرة والنصف، وعندما غادر سريره كانت مشيته بطيئة، وكلماته ضعيفة تكاد لا تُسمَع. وحوالي الساعة الخامسة طلب "المجلّد الثاني من مجموعة مؤلّفاته الكاملة": تصفَّحَه، دوّن على صفحاته "بعض الهوامش البسيطة، أو بعض النواقص المطبعيّة". وعند الثامنة مساءً، تقريبًا، "صعد إلى سريره، والمجلّد لا يزال في يده". وحوالي التاسعة والنصف كان "ممدّدًا على سريره، يتلو صلاته اليوميّة المأخوذة من كتابه **من وحي المسيح**، والتي يقول فيها: "يا مسيحي بصليبك أتدرّع، وبمحبّتك ألتحف، وأشهد أنّ إنجيلك هو طريق الحقّ، وأنّ حياتك هي طريق الحياة. فأهّلني أن أفهم إنجيلك، وأن أحيا بحياتك، ولتكن محبّتي لك شفيعتي لديك""[٢]. وعند العاشرة والدقيقة الثانية والعشرين[٣] "غفا كما يغفو الأطفال. بهدوء، بلا ضجّة، ولا وجع، ولا تعب". غفا غفوته الأخيرة "وكان المجلّد مفتوحًا على الصفحتين ٥٩٠– ٥٩١، حيث قصّة "قلامة ظفر" من كتاب **أبو بطّة**"، لكن ليس عليها أيّ تدوين بخطّ يده[٤]. ويوم الثلاثاء أوّل آذار ١٩٨٨، نُقِل جثمانه من منزله الشتويّ في الزلقا[٥]، إلى كنيسة مار متر في الأشرفيّة حيث صُلّيَ عليه عند الحادية عشرة قبل الظهر، ليُنقل بعدها إلى بلدته بسكنتا[٦]، ويُوارى في ثراها، في فَيء الصخرة التي استظلّها في حياته، وأوصى بأن يظلّ في فيئها بعد الغياب.

خاتمة

عاش نعيمه حياة مديدة حافلة، زاخرة بالنشاط والإنتاج، وملأ قرنًا بكامله. واستمرّ في نشاطه التأليفيّ على الرغم من تقدّمه في السنّ، ومن الأثقال التي رمتها الشيخوخة ومتاعبها الجسديّة فوق منكبيه. ولئن "اضطرب القلم في يده" في سنيه الأخيرة، فإنّ "وعيه لم يضطرب حتّى الغيبوبة الأخيرة في "الزلقا"، إحدى ضواحي بيروت"[٧]، في الثامن والعشرين من شباط سنة ١٩٨٨.

"لعب القدر دورًا رئيسيًّا في توجيه حياته الشخصيّة، كما لعب دورًا مماثلًا في توجيه معظم شخوص قصصه ورواياته، وقد نطقوا بلسانه، وعبّروا عن فكره. والقدر، في نظر نعيمه، هو الموجِّه الأعظم الذي قاده على غير علم منه إلى مدرسة الناصرة، ثمّ إلى السمنار الروحيّ في بولتافا، وهو الذي عاد به [من تلك المدينة] إلى لبنان حيث صمّم على دراسة الحقوق في السوربون مع أنه يكره المحاماة"، ثم جعله يُغيّر "تصميمه ليمضي إلى الولايات المتحدة بدل باريس"[٨]. والقدر أعاده إلى لبنان نهائيًّا، ووجَّهه في جميع كتاباته وأعماله التالية. ولقد تقبّل نعيمه، بالرضى والتسليم، جميع وقائع حياته، المُفجِع منها والمُفْرِح.

---

[١] "**اليوم الأخير**" هو عنوان أحد كتب نعيمه، وقد أصدره عام ١٩٦٣.

[٢] الحاج، جوزف، "تمدّد، صلّى، ثمّ أغمضَ عينيه كالأطفال" في **موسوعة ميخائيل نعيمه الأديب العملاق**، الجزء الأوّل، مرجع سابق، ص ٩٩– ١٠٠.

[٣] "ميخائيل نعيمه يُشيَّع في بسكنتا بحضور ممثّلين عن الجميّل والحُسيني والحصّ"، في مجلّة المشرق، ١/٣/ ١٩٨٨، نقلًا عن: طوق، جوزيف الخوري، **موسوعة ميخائيل نعيمه الأديب العملاق**، الجزء الأوّل، مرجع سابق، ص ١١٩.

[٤] الحاج، جوزف، "تمدّد، صلّى، ثمّ غفا كما يغفو الأطفال" في **موسوعة ميخائيل نعيمه الأديب العملاق**، الجزء الأوّل، مرجع سابق، ص ١٠٢.

[٥] كان من عادة نعيمه، عندما تقدّم به السنّ، أن يقضي فصل الشتاء في الزلقا، وهي من ضواحي بيروت الشماليّة وعلى بُعد عدّة كيلومترات منها، "اتّقاءً للبرد الشديد في بسكنتا حيث لم يكن منزله مزوَّدًا بالتدفئة المركزيّة" (فرنجيّة، روبير، "مشروع متحف في الشخروب للأديب الراحل ميخائيل نعيمه" في جريدة الأنوار، بيروت، السنة ٤٢، العدد ١٥٠٦٤، الأحد ١٨ أيّار ٢٠٠٣.

[٦] "ميخائيل نعيمه يُشيَّع في بسكنتا بحضور ممثّلين عن الجميّل والحُسيني والحصّ" في مجلّة المشرق، ١/٣/ ١٩٨٨، نقلًا عن: طوق، جوزيف الخوري، **موسوعة ميخائيل نعيمه الأديب العملاق**، الجزء الأوّل، مرجع سابق، ص ١١٩.

[٧] جبر، جميل، "سيرته" في **ميخائيل نعيمه في سيرته وأدبه**، مرجع سابق، ص ٢٢.

[٨] جبر، جميل، المرجع نفسه، ص ٢٣.